

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

السهروردي

مؤسس الحكمة الإشراقية
(دراسات ومختارات)



عبد الفتاح روااس قلعه جي

آفاق
ثقافية



السهروردي

مؤسس الحكمة الإشرافية

أفاق ثقافتك

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوح
وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
د. وضاح الخطيب
المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

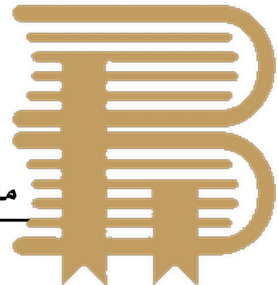
رئيس التحرير
د. نهاد جرد

السهروردي

مؤسس الحكمة الإشرافية

(دراسات ومختارات)

شبكة كتب الشيعة



منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

آفاق ثقافية
العدد (١١٦)
كانون الأول ٢٠١٢م

السهروردي مؤسس الحكمة الإشرافية : دراسات
ومختارات / عبد الفتاح قلعه جي . - دمشق : الهيئة العامة
السورية للكتاب، ٢٠١٣م . - ١٣٦ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١١٦)

١ - ٢١٨,٩١ ق ل ع س
٣ - قلعه جي ٤ - السلسلة
٢ - العنوان

مكتبة الأسد

حياته وعصره

كان العصر الذي عاش فيه السهروردي عصرًا مضطرباً، وكان العالم الإسلامي في المناطق الساخنة موزعاً بين قوى متعددة، فالخطر المغولي يتعاظم بهزائم الخوارزمية، والزنكيون أمراء الموصل وسنجار، وفي ديار بكر وقونية والأناضول كان السلاجقة، والبيزنطيون في القسطنطينية، والإمارات الصليبية في أنطاكية والساحل السوري تهدد المدن الشامية الكبرى ومصر، والإمدادات المستمرة تصلها من أوروبا، والخلافة العباسية في بغداد ضعيفة بعد أن تفككت أوصال إمبراطوريتها، وتسلمت قوى متعددة على الخلفاء الذين غرقوا في البذخ واللهو. وفي هذه الفترة تابع صلاح الدين الأيوبي ما بدأه أستاذه الملك العادل نور الدين بن زنكي النضال ضد الإفرنج. وفي سبيل ذلك عكف على توحيد مصر وبلاد الشام تحت رايته. فقد أنهى حكم الخلافة الفاطمية في القاهرة وتحول الولاء إلى الخلافة في بغداد، واتخذ دمشق عاصمة له، ثم دخل حلب عام

٥٧٩هـ = ١١٨٣م بعد وفاة ملكها الشاب الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكي عام ٥٧٧هـ وولّى عليها ولده الشاب الملك الظاهر غازي، وأحاطه ببطانة من الفقهاء والعلماء .

في هذا المناخ الذي التحمت فيه السياسة بالثقافة كان ينظر بعين الريبة إلى كل دعوة باطنية، توجّساً من أن يستعيد أتباع الفاطميين مواقعهم في العالم الإسلامي، وكان من سوء حظ السهروردي أن ذهبته حياته ضحية هذه الصراعات السياسية بصورة مؤلمة ومأسوية. وكان من الطبيعي أن يقع التصادم بين السهروردي الفيلسوف الصوفي الإشراقي، بكل ما كان يتصف به من ثقافة موسوعية منفتحة على علوم الغرب والشرق، مع حماس الشباب، واعتداد بالذات، وشجاعة فكرية إلى حدّ التهور، وبين فريق من العلماء والفقهاء الأشاعرة الذين يعادون الحرية الفكرية، ويتوجسون شراً من عودة الفكر المعتزلي الذي يقدم العقل على النقل، ويحاربون الفلسفة، ويعادون الصوفية، خوفاً مما قد تشتمل عليه من فكر باطني. وكانت حلب بالنسبة لصالح الدين في غاية الأهمية، فقد كانت مدخل الدولة الأيوبية إلى كردستان، ذلك الخزان الذي كان يستمد منه المقاتلين من أبناء القبائل الكردية في الظروف الحرجة، كما إنّها كانت صلة

الوصل بين الجيوش الشامية في عهدي نور الدين وصلاح الدين وبين أمراء الموصل والأناضول الذين كانوا يشتركون في القتال ضد الصليبيين حين يُطلب منهم.

انعكست هذه الأحداث والمتغيرات على حياة السهروردي وشخصيته، ومن خلال النظر في حياة شهيد الإشراق تبدو لنا شخصيته الفلقة المفعة بالتوتر وعدم الاستقرار. ومن الواضح أنَّ نوازع القلق والتوتر في نفسه قد توافقت مع عصره المضطرب الذي عاش فيه. ذلك العصر الذي تصارعت فيه تيارات فكرية وعقائدية وسياسية متناقضة، وذلك في مواجهة أخطار قائمة تتمثل في الاحتلال الأوربي الصليبي لأجزاء من الشرق العربي الإسلامي، وأخطار قادمة محدقة تتمثل في اقتراب الخطر المغولي.



لا تذكر المراجع التي بين أيدينا تفصيلات وافية عن تاريخ مولد السهروردي بشكل دقيق وعن نشأته الأولى وتعليمه، ولا تلقي ضوءاً ساطعاً على نسبه وأسرته التي نشأ فيها، حتى إنَّ معظم المراجع ينقل بعضها عن بعض في الغالب.

قال ابن خلكان: هو أبو الفتح يحيى بن حبش بن أميرك شهاب الدين السهروردي الحلبي الحكيم المقتول بطلب، وقيل

اسمه أحمد، وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتوح، وذكر أحمد بن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء أنَّ اسم السهروردي المذكور هو عمر ولم يذكر اسم أبيه، أما وصفه بالمقتول فلئلا يُعدَّ شهيداً، لكن تلاميذه عدّوه شهيداً، لأنه قتل بغير حق ووشاية وتحزّب من خصومه .

والصحيح أن اسم السهروردي هو يحيى، ويلقب بـ«شهاب الدين» ويوصف «بالحكيم»، و«المؤيد بالملكوت»، ولقبه تلامذته بـ«الشهيد»، واشتهر بالشيخ المقتول. ولد عام ٥٤٩ هـ = ١١٥٥م إبان الاضطرابات المغولية ببلدة سُهرورد من أعمال زنجان من عراق العجم، وهي بلدة تقع بالجنال في الشمال الغربي من إيران في ميديا القديمة، وهو صاحب «نظرية الإشراق أو الحكمة المشرقية» ويعرف لدى المؤرخين بالسهروردي الحلبي تمييزاً له عن آخرين اشتركوا معه في النسبة، ومنهم:

عبد القاهر بن عبد الله السهروردي (٤٩٠- ٥٦٣هـ) = (١٠٩٧- ١١٦٨م) وهو فقيه شافعي واعظ متصوف، ولي المدرسة النظامية، وتوفي في بغداد، ومن تأليفه: آداب المريدين في شرح أسماء الله الحسنی (مخطوط)، وغريب المصاييح (مخطوط)، وهذا يعرف بالسهروردي البغدادي. وإليه تعود

الطائفة السهروردية التي كان لها دور فعال في الموسيقى الهندية وبخاصة الشيخ بهاء الدين زكريا من مدينة ملتان (في باكستان اليوم)، فقد ترك تأثيراً عميقاً في الموسيقى الهندية وبخاصة في الأغاني الشعبية في البنجاب والسند.

وأبو النجيب السهروردي (ت: ٥٦٣ هـ).

والسهروردي: شرف الدين أبو الروح عيسى بن محمد بن محمد بن قراجا الصوفي: توفي ٦٢٧ هـ اجتمع بأخوان الصفا، مات سنة سبع وعشرين وستمائة، ولم تذكر التراجم تاريخ مولده.

والسهروردي: محمد بن حمزة الشهير بـ «آق» شمس الدين ابن العارف بالله الشهاب السهروردي نشأ بدمشق ثم مع والده وهو طفل الروم، كان طبيباً للأبدان كما كان طبيباً للأرواح، وله في الطب تصانيف وله رسائل كثيرة في التصوف والطب، ولم تذكر كتب التراجم له تاريخ مولد ولا تاريخ وفاة، ولم تأت على ذكر تصانيفه.

والسهروردي محمد الأمين بن عبد الرحمن (١٢٥٢ - ١٣٢٠ هـ) = (١٨٣٦ - ١٩٠٢ م) ولد وتوفي في بغداد، وهو أديب ومدرس وعضو محكمة الاستئناف ومدير بلدية سامراء، ومن تأليفه: تاريخ بغداد، ومجموعة أدب، وديوان شعر.



بدأ شهاب الدين السهروردي يحيى بن حبش حياته العلمية بمراغة من أعمال أذربيجان وقرأ فيها الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي وهو شيخ الإمام فخر الدين الرازي، ثم ارتحل إلى أصفهان، فأتم دراسته هناك وأنفق شطراً من عمره في التنقل والأسفار مهتماً بارتياح مننديات وجماعات العلم والفكر والصوفية، محباً للوحدة التي هيأت لحياته الروحية التأمل والسلوك في معارج أهل الطريق في البحث عن حقيقة نور الأنوار للترقى في درجات المعرفة واليقين، والوصول إلى الحقيقة الكبرى. كان أديباً شاعراً، أوحّد زمانه في علم الحكمة عارفاً بالتصوف، ماهراً في أصول الفقه، مفرط الذكاء، عجيب القريحة، طاف البلاد على طريق الفقر والتجريد، وكان شديد التشوق لمقابلة شريك له في علومه ولم يحصل له ذلك، وكان يقول عن نفسه :

«وها أنا ذا قد بلغ سني إلى قريب من ثلاثين سنة وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مشارك مطلع على العلوم، ولم أجد من عنده خبرٌ عن العلوم الشريفة ولا من يؤمن بها»^(١).

(١) المشارع والمطرحات ضمن مجموعة في الحكمة المشرقية ص ٥٠٥، تحقيق هنري كوربان طبعة إستانبول عام ١٩٤٥ م .

سئل فخر الدين الرازي عنه فقال: «ذهنه يتوقد ذكاء وفطنة»، وسئل السهروردي: أيما أفضل أنت أم أبو علي ابن سينا؟ فقال: إما أن نتساوى أو أكون أعظم منه في البحث، إلا أني أزيد عليه في الكشف والتذوق.

ارتحل الشهاب السهروردي من أصفهان إلى بغداد ثم إلى ديار بكر بالأناضول جنوب تركيا، حيث أحسن استقباله الأمير السلجوقي عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، وألف له كتاب الألواح العمادية، وبرغم رثائه ثيابه وقلة اعتناؤه بمظهره وزهده في أمور الدنيا، فإنه كان موضع الاحترام الكبير في ميفارقين. ولعل إقامته عند الأمير أثرت عليه في تكوين فلسفته، حيث التقت في هذا البلاط الثقافة البيزنطية وريثة الفكر اليوناني الهلينيستي مع الفكر الشرقي الإشرافي، ويجتمع هذا الخليط مع التراث الإسلامي إلى جانب التراث المسيحي.

يقول سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيق: «كان الشيخ شهاب الدين السهروردي رثاً البزّة، لا يلتفت إلى ما يلبس، ولا له احتفال بأمر الدنيا. قال: وكنت وإياه نتمشى في جامع ميفارقين وهو لابس جبة قصيرة، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجليه زربول، فرآني صديق لي، فأتى إلى جانبي

وقال: ما جئت تماشي إلا هذا الخرابندا (أي المكاري)؟ فقلت له:
اسكت ! هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي.

انتقل السهروردي بعد ميافارقين إلى حلب واستقر فيها إلى
أن انتهت حياته تلك النهاية الفاجعة حيث أعدم عام ٥٨٧هـ =
١١٩١م.



صفاته وطموحه

كان السهرودي معتدل القامة واللحية، أحمر الوجه، يسافر كثيراً على قدميه، وكان متجرداً زاهداً لا يحفل بالمال والثياب والمغريات الدنيوية، مقتصداً في حياته، محتقراً لكل مظاهر الأبهة والترف والسلطان، لم يمدح حاكماً أو سلطاناً، وكان واسع العلم حادّ الذكاء سريع البديهة، فصيحاً ناصع البيان، جريئاً في الإفصاح عن أفكاره ومعتقداته إلى حدّ التهور، شديداً مفحم القول في مناظراته، محاجباً لم يناظره مناظر إلا قطعه وأفحمه وظهر عليه، مما أوغر صدور العلماء والفقهاء عليه حتى أفتوا بدمه.

يقول تلميذه الشهرزوري متحدثاً عنه: «صحب الصوفية واستفاد منهم شيئاً وحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد، ثم اشتغل بالرياضات والخلوات والأفكار حتى وصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهاية مكاشفات الأولياء». ثم يقول: «وكانت له رياضات عجز أبناء الزمان عنها، منها أنه كان

يفطر في كل أسبوع مرة، وطعامه لا يزيد عن خمسين درهماً،
وقلَّ أن يوجد إن سبرت طبقات الحكماء أزهد منه وأفضل»^(١).

يقول السهروردي: «نعم الرفيقان الجوع والسهر، يُضعفان
أعداء الله من القوى بعقر مطاياها، ويُعدّان المستشرف لِسناً
الإشراق، الفقر سوط الله ساق به الصديقين إلى فواضل
الدرجات».

قال ابن أبي أصيبعة: حدثني الشيخ سديد الدين محمود بن
عمر قال: كان شهاب الدين السهروردي قد أتى شيخنا فخر
الدين المارديني، وكان يتردد إليه في أوقات وبينهما صداقة،
وكان الشيخ فخر الدين يقول لنا: «ما أذكى هذا الشاب وأفصحه
ولم أجد مثله في زمانِي. إلا أنني أخشى عليه لكثرة تهوُّره
واستهتاره وقلة تحفُّظه أن يكون سبباً لتلافه».

كان شديد الاعتزاز بنفسه وعلمه، وكان يرى أنه أعلم أهل
زمانه مما جعله طموحاً إلى احتلال المراتب العليا إلى حدِّ
المُلك، وهذا الطموح وحده كافٍ لأن يهلك صاحبه في زمن
التنازع على السلطة.

(١) الشهرزوري . مقدمة هياكل النور، بيروت: دار الهجرة، ١٩٩٢، ص ٧.

قال الشيخ سيف الدين الآمدي^(١): اجتمعت بالسهروردي في حلب، فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأنني شربت ماء البحر، فقلت لعل هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا، فرأيت أنه لا يرجع عما وقع في نفسه.

وللسهرودي شعر يؤكد ذلك، وقيل إنه تعرّض به للملك الظاهر غازي ملك حلب، وربما وصلت إلى أبيه الناصر صلاح الدين فكانت سبباً لقتله، يقول في أبيات له:

وبي أملٌ أنِّي أسود وكيف لا	وآل بويه بعد فقرهم سادوا
وأحكم في أهل الزمان كما أشأ	وأملك ماصاتوا، وأهدم ماشادوا
وأفعل ما أختارُ في كلِّ فاسق	من الصيِّد حتى لا تراهم، وقد بادوا

وكان محباً للتطواف في البلاد على طريق الفقر والتجريد. كانت مدن إيران والعراق والشام كلها حواضر بلاد واحدة متواصلة مترابطة ثقافياً وعلمياً، ولم يشكل بُعد المسافة بينها عائقاً لهذا التواصل ومواصلة الحوار بين مفكريها وأدبائها برغم مشقة الأسفار وأخطار الطرق، إلى أن قدم حلب فناظر أهلها

(٢) علي بن محمد، إمام علم الكلام وأحد جهازة الإسلام، ولد سنة ٥٥١ هـ بآمد وتنقل بين حلب وحماة ودمشق.

واستهتر بهم وشطح وتحدى علماءها بكلمات الحكماء اليونان كأفلاطون وأرسطو وحكمة الفرس ومعارف الهند وبعبارات الصوفية وأفكارها ورموزها، وجهر بذلك. فنحن أمام شخصية طموحة تسعى لتلقي العلوم والمعارف والمناظرة بعلومها، وتلقى في سبيل ذلك من عنت السفر ومشقة الطريق وعداوة المتزمتين والجهلاء ما لا يثنئها عن مداومتها للاستزادة.

قال الأمدى: «اجتمعت به فرأيت علمه أكبر من عقله». وينقل ابن الجوزي عن ابن شداد أنه قال: «أقمت بحلب للاشتغال بالعلم الشريف ورأيت أهلها مختلفين في أمره (أي السهروردي)». وهذا الاختلاف فيه بسبب ما كان يكيد له الفقهاء والعلماء من أهل حلب، وذلك بسبب حسدهم إياه على علمه وذكائه، وبما كان في عصره من خوف من الدعوات الباطنية والصوفية الفلسفية.

ولم يكن يتقرب ويتزلف إلى الحكام الذين كانوا يرعون العلماء ويحتضنهم ويشهرونهم عند العامة والخاصة، وهذه الأسباب كلها أدت إلى عدم وجود ترجمة كافية ووافية له، ومن المعروف أنه لم يسع بقدمه إلى الملك الظاهر غازي وإنما الملك هو الذي سعى إليه وقربه منه.

شيوخه وتلامذته ومؤلفاته

بدأ السهروردي تحصيله الدراسي العلمي باتصاله بأستاذه مجد الدين الجيلي في مراغة (أذربيجان)، وهو فقيه أصولي متخصص بعلم الكلام الذي أفاد منه السهروردي في مناظراته، فلازمه فترة ويذكر ابن خلكان في وفياته أنه تلقى منه أيضاً علوم الحكمة والأصول والفقه حتى برع فيها، ومجد الدين هذا هو شيخ فخر الدين الرازي وعليه تخرج وبصحبه انتفع وقد جرت بينه وبين فخر الدين مناظرات ومساجلات، وبعد ارتحاله إلى أصفهان أتم دراسته على يد ظهير الدين القادري الفارسي حيث قرأ البصائر النصيرية في المنطق لعمر بن سهلان الساوي على يد الظهير الفارسي، وفي أثناء تجواله في البلاد تعرف على فخر الدين المارديني (ت ٥٩٤ هـ) وصار تلميذاً مخلصاً له، وكان المارديني علامة وقته في العلوم الحكيمة، جيد المعرفة بصناعة الطب، ويأخذ بمذهب المشائين الأرسطي.

أما تلامذته فمما لا شك فيه أن يكون لشخصية علمية كبيرة تلامذة ومريدون ولكن المراجع لا تذكر إلا شمس الدين محمود

ابن محمد الشهرزوري صاحب نزهة الأرواح وروضة الأفراح،
الذي شرح رسالة الغربية الغربية للسهروردي، ووضع مقدمةً
لكتابه حكمة الإشراق وبعض الحواشي عليه.

إن سعة إطلاعه وذكائه الفائق ولدت الرغبة لديه بالتوفيق بين
الفلسفات والفلاسفة المختلفين، فالفلاسفة عنده رجال أسرة واحدة وإن
انتسبوا إلى شعوب مختلفة، وكلهم ينضون تحت لواء فلسفة واحدة
هي الفلسفة الإشراقية التي أساسها الأول: «أن الله نور الأنوار
ومصدر جميع الكائنات وهو عماد العالم المادي والروحي».



معظم مؤلفاته إن لم نقل كلها في الحكمة الإشراقية. وقد ترك
حوالي خمسين كتاباً ورسالة باللغتين العربية والفارسية، وهي
تؤكد أنه كان واحداً من النماذج البارزة لمفكري الحضارة
الإسلامية الذين لم يتحددوا بإطار لغة أو إقليم.

«وهذه الوحدة الحضارية في التراث تؤكد حقيقة لا ريب فيها
هي أن العالم الإسلامي بكل قوميته ينتمي إلى جذور حضارية
واحدة رغم كل الفواصل السياسية واللغوية والقومية».

وإذا كانت استعادة الوجود تتطلب الارتباط بالجذور، فلا بد
من تضافر الجهود بين كل المتقنين والعلماء والمفكرين في
دائرة حضارتنا الإسلامية.

التجزئة الإقليمية والقومية في أعمالنا الحضارية تؤدي إلى بعثرة هذه الأعمال وإضعافها، إضافة إلى أنها تبتعد عن الموضوعية وواقع هذه الحضارة، بل وفي ظروف سيئة مرّت على أمتنا اتجه كثير من الدراسات - مع الأسف - إلى نوع من التحامل والتشكيك والالتهام في دراستنا الحضارية. وما ذاك إلا بسبب انعدام الإطار الذي يجمع كل الدارسين والباحثين في دائرتنا الحضارية الواحدة»^(١).

لقد ترك السهروردي ٤٩ كتاباً ورسالة باللغتين العربية والفارسية كما ذكر تلميذه الشهرزوري ونذكر منها ما يلي:

- **حكمة الإشراق أو الحكمة الإشراقية:** ولها شروح كثيرة

مثل شرح السهروردي وقطب الدين الشيرازي وتعليقات صدر الدين الشيرازي وشمس الدين الشيرازي . ويضم أسس فكره وفلسفته، ويشتمل على قسمين في المنطق وفي الإلهيات. وتتخلص مدرسته الفلسفية التي سميت بالمدرسة الإشراقية بأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقائق والمعارف بالبحث النظري وحده، بل لابدّ أن يصاحب البحث النظري تأملٌ روحي ليصل إلى حقائق العلم وتتفجر في قلبه أنوار المعرفة. بعبارة

(١) من مقال للدكتور محمد علي آذر شب.

أخرى طريق العلم بحاجة إلى حركة في الفكر وحركة في النفس
كي يصل بها الإنسان إلى حقائق الأشياء .

- الألواح العمادية .

- التنقيحات: في أصول فقه الشافعية، مما يؤكد أنه كان
شافعي المذهب .

- التلوينات اللوحية والعرشية: شرحه الشهرزوري .

- المطارحات: وذكرها بعضهم باسم المشارع والمطارحات

- المقاومات: ذيل ولواحق للتلوينات والألواح .

- هياكل النور .

- المعارج .

- قصة (رسالة) الغربة الغربية .

- أصوات أجنحة جبرائيل .

- رسائل وأدعية فيها تمجيد وتقديس لله تعالى، وهذه الأدعية

جعلها على شكل مناجيات وبارقات إلهية وابتهالات نورانية،

تحتوي على توحيد ومناجاة خالصة لله تعالى بعبارة نورانية

شفافة وابتهالات راقية بديعة، وهناك مجموعة نصوص لم تنتشر

منها:

- اللمحات في الحقائق

- المناجاة .
 - مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم .
 - التعرف للتصوف .
 - الأسماء الإدرسية .
 - الأربعون اسما .
 - يرتونامه: بالفارسية .
 - ترجمة رسائل الطير .
 - بستان القلوب: بالفارسية .
 - صفيير سيمرغ : بالفارسية .
 - الكلمات الذوقية .
 - لغات موران (النمل) : بالفارسية .
 - مؤنس العشاق .
 - بقايا تلخيص إشارات ابن سينا .
 - كشف الغطا لأخوان الصفا .
 - الواردات والتقديسات (تقديسات الشيخ الشهيد).
 - تحفة الأحاباب.
- ويذكر الشهرزوري مؤلفات أخرى وهي:

- الرمز الموحى .
- المبدأ والمعاد: بالفارسية .
- البارقات الإلهية والنعمة السماوية .
- نواع الأنوار .
- طوارق الأنوار .
- البارقات الإلهية .
- النفحات السماوية الإلهية .
- الرقيم القدسي .
- اعتقاد الحكماء .
- رسالة (در حالة طفولية): بالفارسية .
- رسالة المعراج .
- رسالة روزي باجماعت: بالفارسية .
- رسالة عقل سرخ: بالفارسية .
- رسالة أوازبر: بالفارسية .
- رسالة يزدان شناخت: بالفارسية .
- رسالة الطير .
- رسالة تفسير آيات من كتاب الله .

- رسالة غاية المبتدئ.
- التسبيحات.
- دعوات الكواكب.
- تخريرات الكواكب.
- مكاتبات إلى الملوك والشيوخ .
- كتاب الحكمة.
- الألواح الفارسية.
- تسبيحات العقول.
- الهياكل الفارسية.
- أدعية متفرقة.
- الدعوة الشمسية .
- الواردات الإلهية.
- كتاب التعليقات.
- كتاب المنافيات.
- شرح الإشارات: بالفارسية.
- كتاب الصبر.
- كتاب المقاومات.

- كتاب العشاق^(١) .

ومن يعد إلى كتبه التي تحمل آراءه وحكمته وفلسفته يجد أن أهم خصيصة لفكر السهروردي هي الانفتاح على المؤلفات الغربية اليونانية، حتى عُدَّت مدرسته أعظم منظومة فكرية جمعت الشرق والغرب فكراً وحضارياً .

وانفتاحه على الفكر الغربي كان انفتاحاً فاعلاً لا منفعلاً، فقد تبنّى المنطق الصوري الأرسطي، لكنه لم يكن أتباعه أتباعاً أعمى فقد كان له أيضاً ناقداً ومكماً، فقد أنزل المقولات العشر لمنطق أرسطو إلى أربع، ثم جعل من المنطق الصوري سلماً صاعداً إلى عالم الإشراق. ونقّده هذا له أهمية كبيرة في تاريخ المنطق، كما أنه ربط المنطق الصوري عند أرسطو بعالم الإشراق في منظومة فكرية واحدة منسجمة يُعدّ من أروع أعمال السهروردي الفكرية.

يقول الدكتور إبراهيم مذكور في حديثه عن السهروردي: «حقاً إنه كان موسوعي النزعة لا يقنع بكتاب ولا يقف عند شيخ، ويأبى إلا أن يضم الحكماء بعضهم إلى بعض، سواء

(١) أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي: الدكتور محمد علي أبو ريان، ط٢، دار الطلبة العرب بيروت، وترجمة السهروردي لشمس الدين محمود بن محمد الشهرزوري في مقدمته لهماكل النور .

أكانوا شرقيين أم غربيين. وكأنما كان يطبق المبدأ القائل:
الحكمة ضالة المؤمن يَلْتَمِسُهَا أُنَىٰ وَجْدها. وهكذا كان يجمع ما
بين حكماء الفرس واليونان، وبين كهنة مصر وبراهمة الهند.
ويآخي بين أفلاطون وزرادشت، وبين فيثاغورس وهرمس،
بمعنى أنه شاء أن يضم الروحانيين بعضهم إلى بعض دون
تفرقة بين جنس ووطن وتلك نزعة صوفية مألوفة. لا تفرق بين
دين ودين أو بين جنس وآخر».

لقد شهدت حضارة اليونان أيام أرسطو انفصال الفلسفة عن
الدين، خلافاً للحضارات القديمة الأخرى كالصينية واليابانية
والهندية والإيرانية. ومع عصر الترجمة أيام الدولة الإسلامية
في العصر العباسي كان التأثير بالفكر اليوناني وهكذا حدث منذ
بدايات هذه النهضة نوع من الانفصال بين أصحاب العقل
(الفلاسفة) وأصحاب الذوق (العرفانيين والمتصوفة). وقد خلق
هذا الانفصال اتجاهين في الفكر: أحدهما يركز على العقل
باعتباره مصدر كل معرفة، والآخر على الإلهي باعتبار «الله»
مصدر كل أنوار الحقائق.

ولكن القرنين الخامس والسادس شهدا محاولات تقريب
المنهجين على يد ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، ثم

استطاع السهروردي أن يوحد بين المنهجين في منظومته الفكرية المسماة بحكمة الإشراق .

اهتمّ الأوروبيون بدراسة السهروردي والتحقيق في حياته وفلسفته أكثر من العرب وأكثر من الإيرانيين أنفسهم. ومن هؤلاء (بروكلمان) في كتابه «تاريخ الأدب العربي»، فقد تقصّى النسخ الموجودة من مؤلفات السهروردي بالمكتبات العالمية. ومنهم أيضاً (ريتر) الذي قضى سنوات طويلة في اسطنبول يبحث عن السهروردي، و(ماسينيون) الذي تناول حياة السهروردي العلمية، وحاول أن يحيط بالتطور الفكري في منظومة هذا العالم في كتابه «تاريخ التصوف».

ويأتي (هنري كوربان) على رأس المستشرقين الذين اهتموا بالسهروردي فقد قضى عمره كلّهُ في دراسة فلسفة الإشراق وشيخها السهروردي. وإذا كان ماسينيون قد اقتص بالحلاج وكرس حياته لتقديمه ودراسة آثاره، فإن كوربان اقتص بالسهروردي وأنفق حياته في دراسته.

إن مؤلفات السهروردي وحياته ورحلاته تؤكد وحدة الحضارة الإسلامية، فهو إيراني المنشأ ولغته الأصلية فارسية، لكن فكره ينتمي إلى الحضارة الإسلامية، لا إلى بلد ولا إلى لغة. ومثله أيضاً الفارابي وابن سينا والغزالي وابن المقفع

والنسيمي والطوسي وغيرهم كثير... ومثل هذا الفكر لا يمكن أن يحصر في إطار قومي أو إقليمي، إنهم أبناء دائرة ثقافية واحدة تحمل في نتائجها الفكري والإبداعي التعدد والخصوصية أيضاً، وهم أبناء منظومة فكرية تحاور وتفاعل فيها علماء هذه الدائرة من شرق العالم الإسلامي إلى غربه، واختار الجميع اللغة العربية باعتبارها لغة العلم آنذاك، بالرغم من أنهم كتبوا إبداعات خالدة بلغاتهم، وإذا كان بعضهم كتب بالفارسية أو بالتركية أو بغيرهما من لغات عالمنا الإسلامي، فإن العربية كانت هي الجامع اللغوي والثقافي بينهم.

ولم يكن المسافر يحتاج إلى جواز سفر لينتقل من دولة إلى أخرى في العالم الإسلامي برغم من كل الفواصل السياسية واللغوية والقومية، وكان العلماء أو طلاب العلم يقطعون المسافات الشاسعة من أوطانهم إلى المراكز الثقافية الشهيرة آنذاك مثل بغداد ومراغة ودمشق وحلب والقاهرة وغيرها ليأخذوا العلم عن أساطينه أو يشاركوا في الحركة الثقافية، وكانوا دائماً يتم استقبالهم من القائمين على أوقاف دور العلم وتأمين إقامتهم ومعيشتهم ليتفرغوا لما جاؤوا من أجله، وما يجمعهم ويسهل أمرهم أنهم أبناء حضارة واحدة.

قبر خارج السور

أمام برج الثعابين في حلب والمكتشف حديثاً في حفريات باب الفرّج، وخارج سور المدينة القديم يقوم جامع صغير سمي باسم السهروردي ويضم ضريحه الذي يقع في الجهة الغربية من المسجد، وقد وسعت قبلية المسجد حديثاً وأجريت عليها بعض التحسينات، ومع ذلك فإنها تضيق بالمصلين الذين يؤمنونه لصلاة الجمعة فينتشرون خارجاً وتملاً صفوفهم الزقاق الواقع بين المسجد وسوق بوابة القصب في حي الجديدة.

يقول الشيخ راغب الطباخ في كتابه إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: «إنه كان لمسجد السهروردي صحن متسع خرب، وفي سنة ١٣٢٨هـ وضعت دائرة المعارف يدها عليه واعتبرته من الأوقاف المندرسية، وعمّرت الصحن مع جانب من المسجد طابقين، وأجرتهما إلى دائرة البرق والبريد، ثم يقول: وقبر السهروردي درس وهو أمام باب الدائرة المذكورة (ويقوم مكانها الآن مركز للشرطة) بينه وبين الباب خمسة أذرع، واتخذ

له قبر آخر ضمن ما أبقى من المسجد تغطية وتعمية كي لا يقال إنهم درسوا القبر»^(١).

وضريح السهروردي الحالي متواضع، مهمل، ملاصق لجدار القبليّة، علقت عليه مؤخراً لوحة تعرّف باسمه، ومن الواضح أن جدار القبليّة الذي يفصل المسجد عن مخفر الشرطة حالياً لم يكن موجوداً في الأصل، وإنما أنشئ بعد اقتطاع هذا الجزء من المسجد ومن الأفضل ضمه إليه، وسواء أكان الضريح في موقعه الحالي أو على بعد عدة أمتار منه فإن هذا المكان هو مدفنه، ولا بد من العناية به ليكون لائقاً بواحد من أعلام الفلسفة والتصوف والفكر الإنساني، ومؤسس الحكمة الإشراقية.

يقول الشاعر الحلبي الشيخ محمد أبو الوفا الرفاعي في منظومته (١١٧٩ - ١٢٦٤هـ = ١٧٥٦ - ١٨٤٥م) محدداً قبره:
والسهروردي الصغير يحيى وحوّل أتباعه في الدنيا
وقبره بالقرب من باب الفرج إلى الشمال ليس فيه من عوج^(٢)
يقول ابن أبي أصيبعة: حدثني بعض أهالي حلب قال: لما توفي شهاب الدين - رحمه الله - ودفن بظاهر مدينة حلب وجد مكتوباً على قبره.

(١) الطباخ. إعلام النبلاء، ج ٤، ص ٣٠٣.

(٢) أولياء حلب في منظومة الشيخ وفاء. تحقيق الأب فردينان توتل، المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٤١

قد كان صاحبُ هذا القبرِ جوهرةً

مكنونةً قد براها الله من شرفٍ

فلم تكن تعرف الأيام قيمته

فردّها غيرَةً منه إلى الصدف^(١)

لم يدفن السهروردي في مقابر المسلمين لاعتقاد خصومه الذين أفتوا بدمه أنه قد كفر، وقد دفن خارج المدينة في ظاهر السور، غير أن العامة من أهالي حلب قد ردوا إليه الاعتبار وأنشؤوا حول ضريحه مسجداً واعتبروه ولياً من أولياء الله تعالى. لقد ذهب الذين حكموا عليه ظلماً فلم يذكرهم التاريخ وبقي هو واحداً من أهم أعلام الفكر الإسلامي والعالمي.

(١) الطباخ. إعلام النبلاء ، ج٤ ، ص ٢٩٧.

السهروري في الوجدان الشعبي

يزور العامة بحلب ضريح السهروردي ويتبركون به، وأغلبهم لا يعرف عنه شيئاً ويسمونه السليوردي أو السالي وردي محرفة عن السهروردي، ويطلق على الإنسان النحيل، الضعيف القوة الجسمانية، المفكك الأوصال، ومن تشبيهات الحليين (مثل عبد السليوردي، منين ما كمشتو بطلع بإيدك) يعتقدون أن من كراماته وأمره العجيب أنه من أي مكان أمسكته من أعضاء جسمه انفصل هذا العضو عن جسمه وصار في يدك، ويعود هذا التشبيه إلى قصة السهرودي مع راعي الأغنام وسنأتي على ذكرها.

تسأل المسنين من العامة عن السهروردي فيقولون: إنه واحد من أربعة جمعوا علوم الأرض وكشفت لهم الحجب، وهم: الحلاج والنسيمي والسهروردي والسلاخ^(١)، ظهرت لهم قبة

(١) الحلاج هو حسين بن منصور، صوفي مقتول (٢٦٧-٣٠٩ هـ).

النسيمي عماد الدين، حروفي مقتول (٧٧-٨٢٠ هـ). السلاخ قبره

في حي الكلاسة بحلب ولم نعثر له على ترجمة.

دانيال فدخلوها وأغلقت عليهم فقرؤوا ما على جدرانها من علوم ومعارف وغيبيات وأسرار مكتوبة على جدرانها، ولما ظهرت وفتحت في العام التالي خرجوا بما لم يؤته أحد من علم.

ويزعم العامة أن أخلاط الناس يتجمعون في انتظار القبة - المزعومة - وهم يحملون قطع الطين في أيديهم، فإذا ظهرت سارعوا إلى لصق الطين على جدرانها ثم انتزاعه ليقرؤوا ما انطبق عليه من كتابات، ثم يهرعون إلى الخروج منها قبل أن تتغلق عليهم.

ويروي المسعودي في كتابه مروج الذهب أسطورة شعبية شبيهة بأسطورة قبة دانيال، وذلك أن في بلاد الصين هيكلاً عظيماً فيه بئر، ما أكب عليها إنسان إلا هوى فيها، ومكتوب عليها بالخط المسند: «هذه بئر تؤدي إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء، وما كان فيما مضى من الدهر، وما يكون فيما يأتي معه، لا يعمل إلى الوصول إليها والاقتراس منها إلا من وازت قدرته قدرتنا، أو اتصل علمه بعلمنا، وصارت حكمته كحكمتنا».

قبة دانيال في الاعتقاد الشعبي حقيقة مادية، وهي في رمزياتها ودلالاتها رمز لتحصيل العلوم والمعارف عن طريق العرفان والكشف النوراني والعلم الاستسراري، ومنهم من يقول

إنَّ القبة في المغرب، ومنهم من يقول إنَّها في المشرق، ومن غريب الأمور أنَّ التَّصور الشعبي لا يحفل بالتحقيق الزماني فقد جمعوا بين الأربعة وهم من عهود مختلفة، وقالوا إنهم خرجوا من القبة بعلوم لدنيَّة ما أوتيها أحد، فهم علماء الحقيقة، وراحوا يتكلمون بما لا يدركه البشر، ويجادلون العلماء والفقهاء، وهم علماء الرسوم فيظهرون عليهم، فشكاهم الناس إلى السلطان، فدعاهم إلى قصره وجادلهم أهل العلم واتهموهم بالزندقة فحكم عليهم السلطان بالموت، فاستأذنوه بالاغتسال والوضوء ليصلوا ركعتين قبل الموت، فأذن لهم، وكان في باحة القصر بركة كبيرة فألقوا أنفسهم فيها، وانتظر الناس خروجهم لكنهم غابوا عن الأنظار، وبعد مدة ظهر ثلاثة منهم في حلب وهم السهروردي، والنسيمي وضريحه أمام قلعة حلب بجانب حمام السلطان، والسلاخ، وقد زال ضريحه في الكلاسة مع فتح الجادة، أما الحلاج فقد ظهر في بغداد، وعادوا إلى ما كانوا عليه من التَّكلم في العلوم الدنيَّة، والبوح بالأسرار الصوفية فحكم عليهم بالموت، وانتهت حياة الأربعة نهايةً مأساوية، فقد قتل الحلاج وصلب في بغداد، وقتل السهروردي صبراً في قلعة حلب، وسلخ جلد النسيمي في حلب حتى الموت وقطعت أعضاؤه ووزعت على بعض مؤيديه.

العامة إذن بحسبها التاريخي الشعبي والفطري لا تدين ولا تكفر، لأنها بعيدة عن الخصومات والنزاعات التي تقع بين أفراد السلطة السياسية والدينية، وقد رأينا ابن شداد يقول إنه وجد علماء حلب مختلفين في أمر السهروردي، كما وجدنا العز بن عبد السلام وهو الإمام المجاهد المشهور الذي كان له الفضل الأكبر في تجييش الجيوش في معركة عين جالوت يدافع عن الحلاج ويؤوّل قوله الذي قتل به تأويلاً حسناً ليس على الظاهر وإنما على الرمز وفكّ وتفهم المصطلحات الصوفية.

السهروردي في حلب

يقول الشهرزوري في مقدمة كتاب هياكل النور: " وكان رحمه الله في غاية التجريد، نهاية في رفض الدنيا، يحب المقام بديار بكر، وفي بعض الأوقات بالشام، وفي بعضها في الروم" ويبدو أنه اتجه من أرض الروم ووصل إلى حلب سنة ٥٧٩هـ وهو ينشد:

لا يَمْنَعُكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَا
مَنْ أَنْ تَبْدُلَ أَوْطَاناً بِأَوْطَانِ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا
أَهْلاً بِأَهْلٍ وَخَلَاءَ بِخَلَّانِ

فهل كانت حلب وأهل حلب كما ارتجى الشاعر والفيلسوف الإشراقي وبخاصة أنه كتب فيها معظم مؤلفاته؟

اتجه السهروردي إثر دخوله حلب واستقراره في أحد نزلها إلى المدرسة الحلوية وتقع مقابل الباب الغربي للجامع الأموي الكبير، في سوق الحدادين، وقد كانت الكاتدرائية العظمى

للمسيحيين قبل أن يحولها القاضي ابن الخشاب إلى مدرسة ومسجد إثر حصار الصليبيين للمدينة. دخل المدرسة في خطوات ثابتة وهو لابس دلقاً^(١) ومُجرّد بإبريق وعكاز خشب، وبهذا المظهر المتواضع قابل فقهاء حلب وهم يلبسون فاخر الثياب، وجلس في ركن منهم، ولما بدأ الحوار في مسائل العلم اشترك فيه، فلفت نظر مدير المدرسة افتخار الدين قاضي الحنفية وعرف أنه إمام عالم فقيه بالرغم من هيئته الزرية، وعندما انصرف بعد انتهاء الجلسة دعا افتخار الدين ولده وأعطاه ثوباً عنابياً وغلالة وبقياراً^(٢)، وقال له: خذها إلى الشيخ الغريب ليلبسها إذا حضر مجلسنا غداً، ودخل الفتى على الشيخ وأعطاه إياها قائلاً لقد أرسلها لك والذي لتلبسها في مجلس العلماء.

قال الشيخ السهروردي للفتى: ضع هذا القماش يا ولدي واقض لي حاجة. وأعطاه فص بلخش رُماني بحجم بيضة الدجاجة ما ملك أحد مثله في حجمه ولونه وقال له: خذه إلى السوق ونادِ عليه، ومهما أُعطيَت من ثمنٍ لا تبعه قبل أن تراجعني. وذهب الفتى إلى عريف السوق ونادى عليه فبلغ ثمنه

(١) الدلق: جبة يلبسها الصوفيون، فارسية

(٢) البقيار: ضرب من العمام الكبيرة يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة. فارسية.

خمسة وعشرين ألف درهم، لكن الفتى اعتذر عن إتمام البيع حتى يراجع صاحبه وأخذه ومضى إلى الشيخ ليطلعه على الثمن. أخذ السهروردي فص البلخس وضربه بحجر كبير حتى فتّته ونثره في الأرض، والفتى يعجب من فعله، قال السهروردي: خذ يا ولدي هذه الثياب إلى والدك وقل له : لو أردنا الملبوس ما غلبنا عليه! وسنأتي على تفسير هذه الحادثة فيما بعد.

هذه الحادثة تدل على أن فقهاء حلب كانوا يلبسون فاخر الثياب المميزة ليرتفع شأنهم وهيبته أمام العامة وأمام مريديهم، ويحظون بصلات الملك، بينما كان السهروردي يلبس خرقة المتصوفة، والملابس المتواضعة، ويحمل إبريق الماء معه، غير مهتم بمظهره، ويكتفي في الطعام بما يسد الرمق، معتبراً أن جلال المرء بعقله وأفكاره وليس بملبسه ومظهره.

انتهى خبر الحجر الكريم إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي ملك حلب فدعا افتخار الدين وطلبه منه ليشتريه ظاناً أنه له، فقال: إنه ليس لي وإنما لرجل فقير نازل عندي، تفكر الملك وقال: يا افتخار الدين إن صدق ظني، فهذا شهاب الدين السهروردي.

هذه الحادثة تدل على أنّ شهرة السهروردي عند الخاصة كانت قد عمت البلاد وأنها كانت تسبقه إلى أي بلد نزل فيه، وقد بقي السهروردي في حلب تسع سنوات حتى مقتله عام ٥٨٧هـ. يتردد خلالها إلى دمشق ومدن الشام والأناضول ثم يعود إلى حلب.

قربّ الملك الظاهر غازي السهروردي إليه، وأكرمه واصطفاه واصطحبه إلى قلعة حلب من دون الباقين، فأثار بذلك حسد العلماء ونقمتهم، وزاد في ذلك دخوله في مناظرات معهم وظهوره عليهم، فتعصبوا عليه وأفتوا في دمه متهمين إياه بانحلال العقيدة والتعطيل واعتقاده مذهب الحكماء المتقدمين، وكان أشد الجماعة عليه الشيخان زين الدين ومجد الدين من أبناء جهبل.

وأما العماد الأصفهاني فإنه يورد القصة الكاملة لمقتله فيقول: «سنة ٥٨٨ هـ : وفيها قتل الفقيه شهاب الدين السهروردي الإشرافي وتلميذه شمس الدين - يعني الشهرزوري - بقلعة حلب^(١)، وكان فقهاء حلب قد تعصبوا عليه ما خلا الفقيهين ابني

(١) يتفرد الإصفهاني بهذه الرواية والأصح أن السهروردي قتل وحده وأن تلميذه هو الذي اهتم بمؤلفات أستاذه بعد استشهاده.

جهيل، فإنهما قالَا : هذا رجل فقيه ومناظرته في القلعة ليست بحسن، ينزل إلى الجامع ويجتمع الفقهاء كلهم ويعقد له مجلس في الخلاف ما ترجح لهم عليه بحججه.

أما رواية الصفدي فتذكر أنَّ من أفتى بقتله هما الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا جهيل، ونحن نرجح هذه الرواية.

كان السهروردي شافعي المذهب، وله رسالة في الشافعية، يلقب بالمؤيد بالملكوت، وقد اختلف الناس في أمره بعد موته فمنهم من يعتقد فيه الصلاح، وأنه من أهل الكرامات، ومنهم من يعتقد غير ذلك، وقد أدانه خصومه بقوله : « إن الله قادر أن يخلق نبيا » ولم يشاؤوا التمييز بين ممكن في حد ذاته وممكن لم يقع، والسهروردي يرى استمرار النبوة بمعنى حق الحكم التشريع في الإمام، لكن خصومه أولّوا ذلك بأنه يرى إمكانية وضرورة استمرار بعث الأنبياء لحفظ نظام الكون، ومهما يكن فإن خصوم السهروردي قد ألحوا في إقناع الملك باتهاماتهم فاستدعاه وعقد له مجلساً من الفقهاء والمتكلمين يباحثونه ويناضرونه، فإذا هو يَظهرُ عليهم ويَظهرُ فضله وعلمه وقوة حججه أمام الملك، فلم يكن من الملك إلا أن زاد إقباله عليه وإكباره له وإعجابه به فاشتد ضيق الفقهاء، فكتبوا إلى صلاح الدين نفسه فكتب إليه أبوه بإبعاده فلم يبعده، فكتب إليه

بمناظرته، فظهر السهروردي على العلماء، فكتبوا إلى صلاح الدين ثانية يحذرونه من خطر السهروردي على عقائد الناس والدولة التي تقف على حواف الخطر، وقد عملوا محاضر بكفره وسيروها إلى دمشق كاتيين للملك الناصر صلاح الدين: «إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وإن أطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها في البلاد». فاستجاب صلاح الدين وأرسل إلى ولده الظاهر بحلب كتاباً بخط القاضي الفاضل يقول فيه: «إن هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أنه يُطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه». ولما تكلأ ابنه في تنفيذ الأمر هدهه بخلعه من ولاية حلب.

وكان من جملة ما دار في المناظرة بين الفقهاء والسهروردي ما يلي:

الفقهاء: أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً. وهذا مستحيل.

السهروردي: ما حداً لقدرته؟! أليس القادر إذا أراد شيئاً لا يمتنع عليه؟

الفقهاء: بلى.

السهروردي: فالله قادر على كل شيء.

الفقهاء : إلا على خلق نبي فإنه مستحيل .

السهروردي: فهل يستحيل مطلقاً أم لا؟!

الفقهاء: كفرت!

وهكذا اتهم السهروردي بالكفر والإلحاد والزندقة ظلماً وجهلاً
وكيداً فأعدم وهو منها براء.

وقد ملك العجب المؤرخين والمفكرين مما أقدم عليه صلاح
الدين الأيوبي، الذي كان معروفاً باعتداله وتسامحه إلى حد
مصالحته لفرقة الحشاشين التي كان علماء السنة يرون في
أفكارها الزندقة بعينها.

ويفسر بروكلمان الأمر بقوله: «الواقع أن صلاح الدين لم
يستشعر الحاجة إلى إقامة ديوان لامتحان الزنادقة إلا مرة في
حلب كانت مع السهروردي، وكانت له آراء غنوصية... ما
لبثت أن أثارت شكوك علماء السنة، فزعموا أنه يمثل عقيدة
القرامطة المُعادين للدولة. وهكذا لم يكن في وسع صلاح الدين،
رغم اعتداله، إلا أن وافق على حكم الموت الذي أصدره الفقهاء
القضاة عليه عام ١١٩١ م»، وكان السلطان يعيش محنة حصار
الملك الإنكليزي ريكاردوس قلب الأسد لعكا، الحصار الذي
استمر سنتين (من ١١٨٩ إلى أواخر ١١٩١)، حيث انتهى

باستيلاء الصليبيين عليها، يقول بهاء الدين، كاتب السلطان: «كان الفرنج يهْللون، والناس في معسكرنا أُصيبوا بالخبال؛ فالجنود سيكون وينتحبون، والسلطان كالأم الثكلى. وذهبت لرؤيته جاهدًا في إدخال العزاء على قلبه، وقلت له إنه ينبغي بعد الآن أن يهتم لمصير أسرى المسلمين في عكا».

وهكذا انتقل من كارثة عسكرية إلى كارثة إنسانية. فالمفاوضات لإطلاق جنود الحامية مقابل فدية لم تصل إلى نتيجة. وبعد وقت لا ندري تحديده يصل إلى صلاح الدين خبرُ إبادة الأسرى:

«فَجُمِعَ ألفان وسبعمئة جندي من حامية عكا عند الأسوار، ومعهم ثلاثمئة امرأة وطفل من أسرهم، ورُبِطُوا بالحبال، فلا يؤلّفون إلا كتلة بشرية واحدة، وقُدِّمُوا إلى المقاتلين الفرنج الذين انهالوا عليهم بسيوفهم ورماحهم وحتى بالحجارة، إلى أن لم تعد تُسمَعُ أية أهة».

في هذه الظروف الصعبة ما كان لصلاح الدين أن يحقق بروية في قضية السهروردي، وهو المعروف بتسامحه وعدله حتى مع أعدائه.



حبس السهروردي في سجن قلعة حلب وقيل إنّ الملك أرسل إليه من خنقه بوتر، وقيل بل رمي من أعلى القلعة، وقيل ضرب بسيف، والأصح أنه طلب من الملك أن يسجن في القلعة ويمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت صبراً، جوعاً وعطشاً، وهكذا كان، ومهما يكن فقد توفي شاباً عام ٥٨٦هـ/١١٩١م عن عمر لم يتجاوز الثامنة والثلاثين.

ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد أنه قال: «لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب فتفرّق عنه أصحابه».

ظل الملك غازي على حبه وإعجابه بالسهروردي بعد وفاته، وذلك أنه بعد مدة ثار له ونقم على الذين أفتوا في دمه فقبض على جماعة منهم وأهانهم واعتقلهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة، وعدّ ذلك من كرامات الحكيم الشهيد بعد وفاته. ويذكر تلميذه الشهرزوري أنه بلغه أن الشيخ مجد الدين الجيلي رأى رسول الله في المنام وهو يجمع عظام شهاب الدين ويجعلها في النقوبات، وقيل في كيس، ويقول هذه عظام شهاب الدين.

قيل إن السهروردي لما تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد:

أرى قَدَمي أراقَ دمي وهانَ دمي، فها ندمي

وقد سُمعَ قبل موته وهو ينشد:

قل لأصحابي رأوني ميتاً	فبكوني إذ رأوني حزيناً
لا تظنوني بأني ميتٌ	ليس ذا الميت والله أنا
أنا عصفورٌ، وهذا قفصي	طرتُ عنه فتخلّى رهنًا
وأنا اليوم أناجي ملاً	وأرى الله عياناً بهنّا
فاخلعوا الأنفسَ عن أجسا	دها سترون الحقَّ حقاً بينّا
عنصرُ الأرواح فينا واحدٌ	وكذا الأجسامُ جسمٌ عمّا
ما أرى نفسي إلا أنتمُ	واعتقادي أنكم أنتم أنا

هذه القصيدة تجسد إبداعياً فكر الشاعر في الإشراق والمشاهدة، ويشرح حسين مروّة فيقول: إن النور في فلسفة السهروردي، من حيث هو مبدأ الوجود، هو مبدأ "الحقيقة" الصوفية الإشرافية التي هي هدف المعرفة. وتتشكل هذه الفلسفة من فعلي «الإشراق» و«المشاهدة»، اللذين يختلفان من حيث الاتجاه، ويتفقان من حيث الجوهر.

وكان السهروردي إذا جنّه الليل دعا ربّه قائلاً:

«اللهم يا قيّام الوجود، فائض الجود، ومنزل البركات، ومنتهى الرغبات، منورّ النور، ومدبّر الأمور، واهب حياة العالمين:

امدّنا بنورك، ووفّقنا لمرضاتك، وألهمنا رشدك، وطهّرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك، ومعاينة أضوائك، ومجاورة مقرّيك، وموافقة سكان ملكوتك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة والصديقين والأنبياء والمرسلين».

ومثل هذا الكلام لا يقوله إلا مؤمن شديد الإيمان.

لا شك أن حياة السهروردي ما كانت لتنتهي على هذا الشكل المأساوي لولا أن حلب كانت أحد معاقل الفكر الديني الملتمزم بأصول الشريعة على نهج الظاهر وطريقة السلف بعد التحول المذهبي من التشيع السائد في العهدين المرداسي والحمداني إلى المذهب السني في العهدين الزنكي والأيوبي، والذي بدأ مع السلاجقة وقد شهدت بسبب ذلك صراعات وفتناً وبخاصة في عهد الملك الصالح إسماعيل حتى اضطر شمس الدين محمد بن المقدم الوصي على الملك إلى استدعاء كمشتكين من الموصل عام ٥٧٠هـ. وكانت حلب تعيش في ظل حكم طواري عسكري بسبب ظروف الحرب مع الصليبيين، وتفاقم الخطر المغولي، بالإضافة إلى ازدياد نفوذ رجال الدين وتزمتهم، وخوف الحكام من الحركات الباطنية. كما إن السهروردي قد كان فيه حماس الشباب وتهوره في الإفصاح عن آرائه الدينية

والفلسفية، وفي الإدلال بمعرفته على زملائه العلماء والفقهاء مما أثار نقمتهم، وصراع المشايخ المسلحين بمريديهم وفتاواهم شديداً دموياً لا يرحم، هو أشدُّ عنفاً من صراع العسكر، فهم سرعان ما يفتون بالدم، وقد وجدنا مثيله عند علماء الدين المسيحي حين أقاموا محاكم التفتيش، وهذا الحكم لا ينطبق على العقلاء والمتقفين وأهل الوعي من رجال الدين. كما إنَّ صلاح الدين نفسه على خلاف ابنه الشاب الظاهر كان رجلاً عسكرياً عملياً مبغضاً للفلسفة وأصحابها.

يقول ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء: « كان السهروردي المذكور أوحدَ أهل زمانه في العلوم الحكيمة، جامعاً للعلوم الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله ».

ويقول مؤرخ حلب الشيخ راغب الطباخ في كتابه إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء:

« إنَّ من تأمل في أدعية هذا الرجل، وكلامه هنا، وفي كتابه هياكل النور، ونظمه الذي أوردناه، خصوصاً الأبيات التي أنشدها عند مماته، يستدل على أنه كان رجلاً من أعظم الرجال الذين سمت إلى العلياء نفوسهم، وزهدوا في هذه الحياة الفانية، وتيقنوا أنها عرض، ووجهوا قلوبهم إلى الله تعالى، وأقبلوا

بكلّيتهم إلى جناب قدسه، والذي يتراءى لنا من شعره أنه شعر رجلٍ صدّيق لا شعر رجل زنديق»^(١).

هكذا يرفع المؤرخ الحلبي الفيلسوف الإشرافي إلى عليين وإلى مرتبة الصّدّيقين.

يبدو أنّ شجاعة السهروردي في الإعراب عن آرائه ناجمة من عدم خوفه من الموت لإيمانه العميق بأن النفس تصبو إلى الصعود إلى منشئها، ولا يكون ذلك إلا بتخففها من أنقالها المادية وتحررها من أسر الجسد. يقول من قصيدة أنشأها على غرار عينية ابن سينا:

خلعت هياكلها بجرعاءِ الحمى	وصبّت لمغناها القديم تشوّقا
وتلفتت نحو الديارِ فشاقّها	ربّع عَفَت أطلّله فتمزّقا
وقفت تسائله فردّ جوابها	رجع الصدى أن لاسبيل إلى اللقا
فكأنها برقٌ تألّق بالحمى	ثم انطوى، فكأنه ما أبرقا

(١) الطباخ، إعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٠٤.

مراتب الحكماء في حكمة الإشراق

يصنف السهروردي في كتابه «حكمة الإشراق» مراتب الحكماء بحسب توفر شرطين هما:

١ - التأله أي أن يكون الله في قلبه، متديناً متذوقاً متفكراً منقطعاً إلى الله عارفاً بالشرعية،

٢ - البحث وهو الثقافة العلمية الواسعة والمعرفة والاختصاص والعلم بالأمور الدنيوية وأصول الحكم والتشريع، قادر على التبصر والبحث والتطور. وهذه المراتب هي كما يلي:

١ - حكيم إلهي متوغل في التأله عديم البحث، (وهو كأكثر الأنبياء والأولياء من المتصوفة).

٢ - حكيم بحت عديم التأله (وهو كالمشائين والفارابي وابن سينا).

٣ - حكيم إلهي متوغل في التأله والبحث وهذا هو الحكيم الإشراقي الذي يجمع بين الحكمتين الذوقية والبحثية (كالسهروردي).

٤ - حكيم إلهي متوغل في التأله متوسط البحث .

٥ - حكيم إلهي متوغل في التأله ضعيف في البحث .

٦ - حكيم إلهي متوغل في البحث متوسط في التأله .

٧ - حكيم إلهي متوغل في البحث ضعيف في التأله .

ويرى السهروردي أن أرقى المراتب هي الثالثة، وصاحبها هو الإمام أو القطب، وهو الأجدر بالحكم، وبعد نفسه واصلًا إلى هذه المرتبة فهو الأجدر بالقيادة الدينية والدنيوية، وقد ظهر ذلك في بعض شعره وأقواله. كقوله للآمدي : « لا بد أن أملك الأرض»، وقوله:

وبي أملّ أني أسود وكيف لا وآل بويه بعد فقرهم سادوا

وأحكم في أهل الزمان كما أشأ وأملك ماصانوا، وأهدم ماشادوا

مثل هذه الدعوى تعتبر خطراً على السلطات الحاكمة، ولا سيما أنه كان للسهروردي مريدون وأنصار واتصال بسلاجقة الأناضول، مع أنه لم يصل إلى حدود الدعوة السياسية لنفسه. وهذا يقودنا إلى نفي السبب الذي أورده المستشرقان فون كريمر وهورتن لمقتله، وفيه يذهبان إلى أنه وضع مذهبه في دائرة الإسماعيلية القائلة بأن أبناء علي كرم الله وجهه هم صور للتجلي الإلهي معتمدين على نص للسهروردي يقول فيه: «العالم

ما خلا قط من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجج والبيانات»، لكن الذي قاله السهروردي بعد أن صنف مراتب الحكماء هو ما يلي، وهو لا يؤيد دعوى كريمر وهورتن:

«إن اتفق في الوقت متوغلٌ في التأله والبحث فله الرئاسة، وإن لم يتفق فالمتوغل في التأله المتوسط البحث، وإن لم يتفق فالمتوغل في التأله عديم البحث، وهو خليفة الله (أي الحاكم)، ولا تخلو الأرض من متوغل في التأله أبداً؛ إذ لا بد للخلافة من التلقي، وهذا الإمام الذي تتوفر فيه هذه الصفات وهو الأحقُّ وقد يكون مستولياً (أي حاكماً فعلياً) فيكون الزمان نورياً، وقد يكون خفياً (أي مستتراً غير معروف) وهو ما يسميه المتصوفة باسم القطب».

السهروردي إذن يتناول مسألة الإمامة تناولاً فلسفياً وعملياً، لا مذهبياً ولا طائفيّاً ولا قومياً، ولا يجعلها محصورة في أبناء علي (t).

أخبار محققة

أهي من السيمياء أم الإشرافية التجريبية

حادثة أولى: يذكر ابن أبي أصيبعة أن شهاب الدين السهروردي كان يعرف علم السيمياء، وله نوادر في هذا الفن^(١) منها ما رواه الحكيم إبراهيم بن أبي الفضل بن صدقة أنه اجتمع به في ظاهر باب الفرج بدمشق، وكان يتمشى مع بعض تلامذته، فقال الشيخ السهروردي: ما أحسن دمشق وهذه المواضع. فنظروا فرأوا أشجاراً وقصوراً ونساء فانتات يطلن من النوافذ وأنهاراً جاريات. قال الحكيم إبراهيم وكان شاهداً للحادثة: "فبقينا نتعجب من ذلك وتستحسنه الجماعة وقد انذهلوا لما رأوا، فبقينا كذلك ساعة، ثم غاب كل ذلك وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول الزمان، إلا أنه عند رؤية تلك الحالة

(١) أخبار السهروردي في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٦٤١-٦٤٣ دار مكتبة الأجيال. بيروت، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان . ص ٩٦ ط ١٩٧١م.

الأولى العجيبة بقيت أحسُّ في نفسي كأنني في سنة خفيفة".
وكلمة سنة قد تقرأ بفتح السين بمعنى زمن خفيف، وهذا ما
نرجحه، أو بكسرهما بمعنى غفوة قصيرة.

حادثة ثانية: ويروي ابن أبي أصيبعة عن أحد فقهاء العجم
حضر الحادثة، أنَّ الشيخ كان مع تلامذته فرأوا أن يشتروا شاة،
فنهض تلميذ للشيخ واشترى شاة من راع تركماني بعشرة
دراهم، ورأى التركماني أنه قد بُخس حقه، فجاء يجادل الشيخ
في ثمنها حتى غضب التركماني وجذب الشيخ من يمينه
فانخلعت وانفصلت عن جسده، ففزع ورمأها على الأرض نازفة
وولّى هارباً، فالتقط الشيخ يده من الأرض وعاد إلى تلامذته فإذا
به لا يحمل غير منديل أحمر! ومن ذلك جاء المثل الحلي:
«مثل عبد السالي وردي منين ما كمشتو بطلع في إيدك».

حادثة ثالثة: وهي مقرونة بعبارة «وزعم عليه أي على
السهروردي» وذلك ما ذكره الشيخ أحمد الملاً في مختصره
لتاريخ الذهبى من أنَّ تلميذاً له قال له: قد كثر القول بأنك تقول:
«النبوة مكتسبة» فأخرج بنا. فخرج إلى قرية دوير بن الخشّاب
فأكل البطيخ الأحمر وتناول من حفرة فيها بعض الحصى ثم
دهنه بدهن معه وشدّه إلى وسطه ووسط أصحابه أياماً ثم حلّه

فإذا هو ياقوت أحمر باع منه ووهب، ولما قُتل وجد شيء منه في وسطه».

حوادث أخرى_كحادثة فص البلخش مع مدير مدرسة الحلوية والتي أتينا على ذكرها.



بم نفسر هذه الأحداث وبعضها محقق، وبخاصة حادثة دمشق؟

١ - يتساءل الأديب الحلبي صاحب مجلة الحديث في كتابه عن السهروردي: هل لجأ إلى التنويم المغناطيسي أم إلى ظواهر الروح؟ ثم يقول: إنّ العلم الحديث يقر اليوم «ظاهرة الجلاء البصري» وفيها يرى الوسيط صورة لشيء لا يراها غيره، وتكون الرؤية باستعمال حسّ هو فوق الحس الفيزيولوجي.

٢ - من المؤكد أنّ ما قام به السهروردي لم يكن ضرباً من التنويم المغناطيسي، ولكن ألا يمكن أن نردّه إلى براعته في السيمياء، وبخاصة أن ابن أبي أصيبعة أورد هذه الحوادث في معرض حديثه عن علم السهروردي بالسيمياء، ونشير هنا أن لهذا العلم جانبين:

الأول، مادي : وهو تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وهذا ما فشل به الأقدمون .

الثاني، روحي: وهو التحويل الروحي، أو الارتقاء بالروح من حالة « المدرك العادي» إلى حالة أعلى هي «المدرك فوق العادي»، وذلك انطلاقاً من أنّ الروح جوهر وما عداها من غواسق البدن والأشياء عَرَض، وأنّ الفكر سابق «للصنع» ومنتجِه، وله الحقيقة، فالروح المتعالية تستطيع أن تدرك، وأن ترى، وأن تخلق بصرياً ما هو «فوق العادي» وتحويل «العادي» إلى «ما فوق العادي» كما رأينا في حادثة البلخش، إذ تحمل المادة مؤثراً روحياً فيراها الرائي وإن كان بعيداً عن المؤثر الأصلي مادة أخرى بصفات مختلفة.

يذكر ابن خلدون في مقدمته^(١) أنّ علم الحروف واستخراج المغيبات منها هو المعروف بالسيمياء، غير أن حوادث السهروردي بعيدة عن هذا الجانب.

يقول الشهرزوري: «سمعت من علماء العامة، وممن لاحظ لهم في العلوم الحقيقية يقول: إنه كان يعرف السيمياء، وبعضهم يزعم أنه متخيل، وكلُّ ذلك خرافات وجهل بمقامات أخوان

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ ط ١٩٧١ .

التجريد، بل هو وصل إلى غاية مقاماتهم، ولأخوان التجريد مقام يقدرّون فيه على إيجاد أيّ صورة أرادوا، وإلى هذا المقام وصل أبو يزيد البسطامي، والحسين بن منصور الحلاج وغيرهما من أخوان التجريد، وكنت مدة مؤمناً بهذا المقام حتى أعانني الله تعالى باليقين التام، ولولا أنه من الأسرار التي يجب كتمانها لذكرت من حاله شيئاً»^(١) .

١ - مع عدم استبعادنا للجوء السهروردي إلى السيمياء الروحية فإننا نرى أن ما قام به هو وضع فلسفته الإشراقية في مجال التجريب والتطبيق، ثمة تجربة روحية مثيرة في انسكاب الأنوار وتشعشعها قام بها على نفوس محيطة به استطاع الارتقاء المؤقت بها من عالم الغواسق والأجسام إلى عالم المثل المعلقة والتي يرى فيها الإنسان المرتقي كل ما هو موجود في العالم الحسي من غنى وتنوع؛ وإنما في صورة أرقى وفي حالة لطيفة غير مادية وهذا ما يفسر قول الحكيم ابن أبي الفضل : «بقيت أحس في نفسي كأنني في سنة خفيفة» وسنأتي على ذكر هذه العوالم في فلسفة السهروردي.

٢ - إنّ التجريب الروحي أمرٌ لم يعد من الممكن تجاهله، وله من الاعتبار في مجالاته ما للتجريب العلمي في مجالاته،

(١) الشهرزوري. مقدمة هياكل النور ص ٨ دار الهجرة ١٩٩٢.

والاتجاه الأمثل في البحث اليوم يسير إلى اعتبار أن العالم كلُّه لا يتجزأ، وأن ثَمَّةَ عنصراً عاقلاً واعياً يقوم في الموجودات من الذرات إلى الأفلاك هو علَّةُ الحركة الكلية الجوهرية في نهر الكون، وهذا ما عبّر عنه الفلاسفة الأوائل مثل أفلاطون، والإشراقيون والعرفانيون، بظهور الحق في الخلق، أو في شكل آخر كما عند ابن عربي بأن الموجودات هي تجليات الحق بأسمائه وصفاته لا بذاته.

٣ - يقول ابن عربي في فصوص الحكم (الفص السادس) :
«والعارف يخلق بالهمة ما يكون له وجود خارج محل الهمة، ولا تزال الهمة تحفظ، ولا يؤوده حفظه أي حفظ ما خلقه، فمتى طرأ على العارف غفلة عن حفظ ما خلق عُدِمَ ذلك المخلوق».

فالعارف يستطيع أن يخلق أشياء، ليست من قبيل التوهم، بل يكون لها وجود في العالم الخارجي المحسوس، وأداته في الخلق هي «الهمة» وتعرف عند المتكلمين باسم «الإخلاص» وعند الصوفية باسم «الحضور» وعند العارفين باسم «الهمة»، وهي قوة غريبة «عناية إلهية» لا تعرف ماهيتها، يسلطها العارف في حال فناءه في الله على أي شيء يريد أن يكون فيكون، وبما أن الفناء لا يكون في الذات وإنما في الأسماء والصفات (الأسماء = الأرباب عند ابن عربي) فعملية الخلق حقيقة تعود إلى الحق

"الله" وليس إلى العارف، وإنما يكون العارف وسيطاً في هذه العملية، (مثل إحياء عيسى (U) للموتى، فالإحياء يعود إلى الله وليس إلى عيسى فهو وسيط). غير أنَّ العارف لا بد في النهاية أن يغفل عما خلق - بالوساطة - فيعدم، أما الحق فلا يغفل فيبقى ما خلق، لكنه يورد طريقاً لحفظ الصور وذلك بتوالد (= خلق) الصور من بعضها، ويعطي هو أي العارف عنايته للصورة الأولى فلا يغفل عنها فتتحفظ بها جميع الصور.

سؤالان:

أ - هل قام ابن عربي بوضع هذه الأطروحة الخطيرة في مجال التجريب، وهو العارف، كما فعل السهروردي في إشراقيته التجريبية، أم أنه خاف عواقب الأمور، علماً بأنه يعتز بهذا الكشف بقوله: «وهذه مسألة أخبرت ما سطرها أحد في كتاب لا أنا ولا غيري إلا في هذا الكتاب».

ب - ألا يمكن أن يتعاون ويتحاور التجريب الروحي الإشراقي والتجريب العلمي في الكشف عن تركيب العناصر المخلوقة بالهمة؛ لنصل إلى يقين كلي وروحي؟

طوابع الفلسفة الإشرافية

قبل أن نتحدث عن أهمّ قواعد الفلسفة الإشرافية التي أرسى السهروردي أسسها لا بد أن نشير إلى طوابعها فنعود إلى نقطتين .

- الأولى : هي ظهور طوابعها في نظرية المعرفة عند أفلاطون، وكانت فلسفته ذات بعدين متلازمين هما:

١ - البعد العرفاني الذي تمثله قوة الربوبية، وروح التأله، والاتصال بقدس الإلهية.

٢ - البعد العقلي الذي تمثله قوة الاستدلال العقلي.

نما البعد الأول واستمر في الأفلاطونية الحديثة وكان أفلوطين وفرغوريوس وبركلس أبرز أعلامه وقد شكل أحد عناصر فلسفة الإشراق. ونما البعد الثاني واستمر عند أرسطو ومن خلفه من المشائين.

لم تعترف المشائية التي تعتمد على العقل والاستدلال والبرهان والتجربة بالعرفان ومعطياته، ولم تقرر أصول الكشف والشهود في الوصول إلى المعرفة، وقد حمل لواء الفلسفة المشائية الإسلامية عبقریات كبيرة مثل يعقوب بن إسحاق الكندي وابن سينا والفارابي وابن رشد ونصير الدين الطوسي ومحمد باقر الداماد، وبه انتهت سلطة المشائية فهو خاتمهم ومن جاء بعده لم يكن ذا أثر.

على الرغم من أنّ المشائية الإسلامية احتفظت بأصول المشائية الإغريقية وطرقها في الاستدلال والإثبات، إلا أنها اختلفت عنها عند بعض المشائين الإسلاميين كابن سينا بإقرار أسس العرفان الذي استندوا إليه في توسيع نطاق البصيرة وإثراء المفاهيم الفلسفية، ومع ذلك فإنهم لم يدخلوا هذه الأسس في استدلالاتهم العقلية، وتعتبر قصيدة ابن سينا في النفس الناطقة :

هبطت إليك من المحلّ الأرفع
ورقاء ذاتٍ تعزّز وتمنع
تبكي وقد ذكرت عهداً بالحمى
بمدامع تهمني ولما تُقلع

تعدُّ من أهم ركائز الجانب العرفاني، والمقدمة التاريخية لقصيدة السهروردي العشقية «أبدأ تحن إليكم الأرواح» وقصيدة «خلعت هياكلها بجرعاء الحمى».

وانفتاح السهروردي على الفكر الغربي كان انفتاحاً فاعلاً لا منفعلاً، فهو بالرغم من اعتماده المنطق الصوري عند أرسطو، إلا أنه كان له ناقدًا ومكماً، فقد أنزل (المقولات العشر) لمنطق أرسطو إلى أربع، ثم جعل من المنطق الصوري سلماً صاعداً إلى عالم الإشراق. ولنقد هذا أهمية بالغة في تاريخ المنطق، كما إنّه ربط المنطق الصوري بعالم الإشراق في منظومة فكرية واحدة منسجمة هي أروع ما في أعماله الفكرية. ومن المعروف أنّ حركة الفكر اليونانية في عهد أرسطو هي الوحيدة التي حدث فيها انفصال الفلسفة عن الدين، خلافاً للحضارات والثقافات القديمة الأخرى كالصينية واليابانية والهندية والإيرانية، ثم جاء السهروردي ليجسر الهوة بينهما.

يقول الدكتور إبراهيم مذكور في حديثه عن السهروردي: «حقاً إنه كان موسوعي النزعة لا يقنع بكتاب ولا يقف عند شيخ، ويأبى إلا أن يضم الحكماء بعضهم إلى بعض، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين. وكأنما كان يطبق المبدأ القائل: «الحكمة ضالة المؤمن يلمسها أتى وجدها». فجمع بين حكماء

الفرس واليونان، بين كهنة مصر وبراهمة الهند. وأخى بين أفلاطون وزرادشت، وبين فيثاغورس وهرمس. وشاء أن يضم الروحانيين بعضهم إلى بعض دون تفرقة بين جنس ووطن وتلك نزعة صوفية مألوفة. فيرى العارفون أنهم جميعاً إخوان في الله، وفي مرحلة الوصول والحب الإلهي لا يفرق ابن عربي أو اسبينوزا مثلاً بين دين ودين، ولا بين مسلم ومسيحي».

* * *

عندما طلعت الإشراقية على يد السهروردي كانت انقلاباً حقيقياً في الفكر وثورة على المشائية، ففي حين نرى المشائية تُعرض عن السلوك العرفاني الإشراقي في الحصول على المعرفة وتعتمد طريق الاستدلال المنطقي، فإنَّ الإشراقية استفادت من المشائية والعرفانية معاً، فالإشراقيون لم ينسفوا أصول الاستدلال المنطقي، ولم يرفضوه، وإنما أقرّوه منبهاً للعقل وباعث للقوى السلوكية بالإنارة والتشويق والتحرير، وجعلوا المنزلة الأولى للسلوك الإشراقي في الوصول إلى المعارف الكبرى.

الإشراقية في جوهرها فلسفة استدلالية عقلية، وسلوكية إشراقية هدفها اتصال الأنوار التي هبطت إلى البرازخ والغواسق بالنور الأتم الأقهر، وهي تشترك مع العرفان في

إقرار أصول الكشف واعتمادها، كما أشرنا إلى النقطة الرئيسية التي تفترق فيها عن العرفان في تفسير الوجود. وبهذه الممازجة، وبنسخها الزرادشتي الذي سنتحدث عنه، وبهيكلها الفكري الإسلامي استطاعت أن تفتح طريقاً جديداً للعقل غير الطريق الذي سارت عليه المشائية، مُدَّة العقل الإنساني والروح الإنسانية التائقة بطاقة جديدة وحرية واسعة في الخلق والابتكار كانت مرتكزاً للكشف النوراني، وهيأت له قفزات سديدة وسريعة للوصول إلى الحقائق بعيداً عن قيود وجمود الاستدلال وشطحات الصوفية.

وكان لا بد لمسيرة المعرفة أن تتابع طريق التطور والتنامي، فقد تلا الفلسفة الإشراقية طلوع الحكمة المتعالية عند صدر المتألهين الفيلسوف صدر الدين الشيرازي (٩٧٩ - ١٠٥٥هـ = ١٥٥٤ - ١٦٣٤م) ومن أهم مؤلفاته «مفاتيح الغيب»، وقد جمع في حكمته بين الفلسفة والعرفان، وبين الإلهام والاستدلال، ودمج ما بين العناصر المشائية والإشراقية والعرفانية والدينية، وأكد أن الشرع والعقل متطابقان في جميع المسائل الحكيمة، وقال بوحدة الوجود، وتفرد بطرح نظرية الحركة الجوهرية التي ترتقي بها البشرية وتسير بها الأشياء إلى الكمال، وبالرغم من أن هذه النظرية تبدو وكأنها حملت في أعماقها بذور الدارونية إلا أنها تختلف عنها بشكل جذري.

- الثانية: لا شك أن الفلسفة الإشرافية هي فلسفة إسلامية في بنيتها، تشكل الآراء الدينية الإسلامية أهم مكوناتها وعناصرها، ولا يقصد بالفلسفة الإسلامية أن تعني فلسفة دينية نصية مما جاء به النبي (٢) وفقهاء الإسلام والأئمة، بل هي الفلسفة التي توافق في خطوطها الكلية الفكر الإسلامي ومفهومه عن الوجود مع إمكان الاختلاف في نقاط من التفكير بفعل التمازج الديني والثقافي، وبفعل حركة فكر المفكر نفسه، وقد أشرنا إلى العناصر الإغريقية فيها، ونشير الآن إلى أن هنالك عناصر فارسية وبخاصة الفلسفة الفارسية القديمة التي بلغت أوج كمالها في الزرادشتية.

يقول السهروردي في كتابه حكمة الإشراق:

«إن قاعدة الإشراق هي طريق النور والظلمة التي كانت طريقة حكماء الفرس مثل جاماسب وفرشادشير وبزرجمهر ومن قبلهم» وهو يؤكد أن هؤلاء الحكماء لم يكونوا من القائلين بظاهر النور والظلمة، وإله الخير وإله الشر، أي لم يكونوا من كفرة المجوس وإلحاد «ماني» وما يفضي إلى الشرك بالله تعالى، وإنما كانوا موحدّين ومؤمنين بالله تعالى.

في الديانة الفارسية القديمة المعبود الحق، الأحد، الذي يرجع إليه الوجود هو «أهورا مزدا» وقد خلق بحكمته وجودين:

١ - الأول هو الوجود النوراني الخيّر المتصل بذاته، والمتواجد في عالم الإنسان يبيث فيه الخير، وله إمكان الوصول إلى العالم الرباني إذا تحرر من المعيقات الظلمانية، وهذا الوجود النوراني يتمثل في عدة وجودات نورية تسمى «إيزدات وإمشابندات، يسيطر عليها وجود أقوى هو «الإيزد» أو «اليزدان» وهو ليس الله وإنما يعادل في الإسلام الملائكة».

٢ - الثاني: هو الوجود الظلماني الشرير، وهو ملحق بجذر العدم، وسنجد هذا الأمر أيضاً عند صدر المتألهين حيث يُعدُّ العدم شراً مطلقاً، وقد عبروا عن قوة الشر هذه وعن ممّدها بـ«أهريمن» ويقابلة في الإسلام «الشيطان»، وليس لأهريمن القدرة على مقاوة السلطان الأهورائي (الله) وإنما هو مقهور أمامه، لأنه لا يقع مقابله وإنما يقع مقابل اليزدان.

والنفس الإنسانية في الحكمة الفهلوية والخسروانية -الأهورائية - تعاني الصراع بين الإيزدات والأهريمانات، ويقابل ذلك في الإسلام الصراع بين الملائكة والشياطين، أي بين قوى الخير والشر.

وحقيقة الوجود في العقيدة الأهورائية هي النور، وأهورا مزدا (= الله هو النور الأتم الأقهر الأبهر، الواجب الوجود، مخرج الأشياء من الظلمة (= العدم) إلى النور (= الوجود)،

وكلما هبطت الأنوار بتشعشعاتها وانسكابها إلى الغواسق والأبدان تقلصت وسادت أحكام الظلمة، فهي لذلك تحنُّ لترجع إلى النور الأتم الأفهر.

استوعب السهروردي جميع هذه الفلسفات القديمة، والأفكار الدينية التوحيدية، والسلوكيات العرفانية، وتمثلها بفكر منفتح فبنى منها حكمة الإشراق.

الحركة والتجدد هما سرّ استمرار الوجود، والثورات الفكرية التي عصفت بالفلسفة كانت ضرورية لحياة الفلسفة نفسها واستمرارها، ويشكل طلوع الحكمة الإشراقية التي تجمع ما بين الفلسفة والعلم واحدة من أهم هذه الثورات، وقفزة كبيرة في تطورها التاريخي، حررت بظهورها الفكر من التجمّد، وفتحت للعقل طريقاً آخر غير ما كان يسير عليه المشاؤون.

رسالة في اعتقاد الحكماء

من التهم التي وجهت إلى السهروردي وكانت السبب في مقتله: اعتقاده مذهب الحكماء المتقدمين، وهو لا ينفي ذلك وإنما يدافع عنهم في كتابه «رسالة في اعتقاد الحكماء». يقول في مقدمة الرسالة:

«وسبب تحرير هذا الكتاب هو أنني لما رأيت أنه تطرّق ألسنة الناس إلى أهل العلم من الحكماء المتألهين، واشتد التكفير في حقهم، ومنشأ ذلك بسبب ظن الناس في حقهم بأنهم الدهرية الذين لا يقولون بالصانع ولا بالأنبياء ولا بالحرش ولا بالنشر والمرجع والمعاد، ولا بالعذاب والراحة بعد الموت، نعوذ بالله من هذا الكلام، فعليهم لعين الله وعلى محبيهم».

ودفاعه هذا لأغراض ثلاثة:

- ١ - إزالة الالتباس وعدم الفهم، وشرح حقيقة معتقدات الحكماء الأوائل الوجدانية قبل الإسلام.
- ٢ - التقريب بين هذه المعتقدات الوجدانية القبل إسلامية وبين المعتقدات الإسلامية.

٣ - وبما أنّ لهذه العناصر الإغريقية والفارسية القديمة مؤثرات في فلسفته فهو بدفاعه هذا واتباعه صوابها يرسى قواعد حكمة الإشراق.

وهو يورد آراء الحكماء ومعتقداتهم مقدّمة بقوله: ويقولون، ويعتقدون، ويتبعها غالباً بما يؤكدّها من أحاديث نبوية ونصوص قرآنية. وسنورد بعض هذه الآراء مختصرة.

أ - ويقولون: أول ما أبدع الله تعالى أمراً عقلياً حياً عالماً، كما قال النبي (٢) «أول ما خلق الله العقل» ونلاحظ هنا التقريب بين أقوال الحكماء قبل الإسلام وبين النص الإسلامي.

ب - ويعتقدون بأن الله لا يبدع شيئاً بناء على إرادته، إذ الإرادة لا تكون إلا عند ترجيح أحد الجانبين على الآخر إما لنفع عائد إلى ذاته أو لنفع راجع إلى فضوله.. إلى أن يقول فإنّ لا يكون فعله بناء على غرض بل ذاته يقتضي الوجود.

ت - ويعتقدون أن الإنسان أشرف الحيوانات الأرضية وله نفس ناطقة، والنفس الناطقة عند الحكيم عبارة عن جوهر عقلي، ليس في عالم العنصري ولا في عالم الأثيري، بل لا يتصور وجوده في عالم الأجسام وليس فرق بينه وبين الملائكة إلا في

تصرفه في عالم الأجسام، والنفس الناطقة قائمة بنفسها، لا في أيت، عالمة، مدبرة للأبدان كما أشار التنزيل «فالسابقات سبقاً» وهي العقول، «فالمدبرات أمراً» زهي النفوس.

ث - ويعتقدون أنّ العوالم ثلاثة: عالم العقول وهو عالم الجبروت، وعالم النفوس وهو عالم الملكوت، وعالم الملك وهو عالم الأجرام.

ج - ويعتقدون أنّ نفس الآدمي بعد المفارقة (أي الموت) إن كانت عارفة بالله وملائكته تلتذ بالقرب من الله فتجد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (وهذه هي الجنة)، وإن كانت جاهلة بالله وملائكته تتألم بعذاب الحجاب عن الله، وبما فات من راحة الدنيا، وباكتسابها الهيئات الرديّة. وهذا المفهوم الباطن للجنة والنار الذي يتبناه السهروردي بدفاعه جاء به ابن عربي في فصوص الحكم (انظر الفصل السابع) حتى أرجع عذاب النار إلى العذوبة، وجعل النار مرتبة دنيا من النعيم، لأنها ستكون برداً وسلاماً كنار إبراهيم، وعذاب أهل النار هو في احتجاب الله عنهم وعدم معرفتهم به.

ح - ويعتقدون أنّ الأنبياء عليهم السلام مبعوثون بالحق لمصلحة نظام العالم وليذكروهم بالآخرة، وأنّ النفس إن كانت شريفة

وقوية تتصل بروح القدس وتأخذ منه العلوم، ويحصل على هذه الدرجة الأولياء والأنبياء، غير أن الأنبياء مأمورون بإصلاح الحقائق وأداء الرسالة.

يقول الشهرزوري: «إنَّه بعد هؤلاء الحكماء الأوائل وامتداد الزمن وطول العهد ضاعت طرق سلوكهم، وكيفية التوصل إلى معاينة الأنوار المجردة، وتضاعف هذا الضياع إلى الزمن المذكور». ثم يقول: «ولم يزل طريق الحكمة مسدوداً مضطرباً حتى طلع كوكب السعادة، وظهر صبح الحكمة من أفق النفس، وأشرقت أنوار الحقائق من المحل الأعلى بظهور مولانا سلطان الحقيقة ومقتدي الطريقة، مظهر الدقائق وفائض الحقائق، معدن الحكمة، وصاحب الهمة، المؤيد بالملكوت، والمنخرط في سلك عالم الجبروت، بقية السلف، سيّد فضلاء الخلف، أفضل المتقدمين والمتأخرين، لبّ الفلاسفة والحكماء المتألهين، شهاب الملة والحق والدين أبو الفتوح السهروردي».

قواعد الفلسفة الإشراقية

يقول حسين مروّة: إن النظريات الإشراقية عند السهروردي المقتول نموذج حيٌّ للتداخل بين الفلسفة العقلانية (المشائية في شكل خاص) وبين فلسفة التصوف، إضافة إلى مصادر الفكر الإشراقي المتعددة (الزرادشتية، الفيثاغورية، الأفلاطونية، والهرمسية) في إطار الإسلام العام.

ويضيف مروّة: من النصوص الأصلية التي يبدو أن السهروردي كان مستوعباً إياها بوعي جيد موضوعة «العالمية» التي يقوم عليها تاريخ الفكر الفلسفي، بمختلف أشكاله وتجليّاته، في مختلف بيئاته وأزمته. وإنه بهذا الاستيعاب وهذا الوعي بنى مذهبه التصوفي الإشراقي. لذلك فإن «الحركة الإشراقية، مظهرت في إطار التصوف الإسلامي وجدت في السهروردي المقتول منظماً لنظريتها المتكاملة».

يُعدُّ السهروردي مؤسس المذهب الإشراقي بإجماع العلماء قديماً وحديثاً كما يقول هنري كوربان، ولقد تأخر العالم كثيراً

إلى أن اكتشف الموقع المتقدم لهذا المفكر الكبير، ومكانته، في حركة الفكر الإنساني.

في كتابه حكمة الإشراق وهو الجامع لفلسفته الإشراقية يتحدث السهروردي عن الطبائع فيقسمها إلى طبائع متكررة ممتعة، وهي طبائع الوجود المادي والجسماني، وطبائع غير متكررة وهي الماهيات النورية.

ويرى أن المبدأ الحقيقي للوجود هو الواجب الوجود بذاته، النور الأتم الأظهر الأبهر «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح... الخ الآية»^(١). والنور ينسكب متشعشعاً من النور الأتم وحتى أضعف الأنوار في الغواسق والبرازخ، والمعرفة تتم بالكشف والإشراق النوراني، وذلك بانسكاب الأنوار العقلية على الأرواح وظهورها ولمعانها وفيضاناتها بالإشراقات على النفس حين تجردها.

هذه الأنوار هي عماد العالم المادي والروحي، أما العقول المفارقة فما هي إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها.

(١) سورة النور الآية ٣٥.

وللنور الأتم صفات ذاتية أزلية هي: العلم والحياة والقدرة
والمشيئة والسمع والبصر والتكلم. لا تتفك عنها حتى ولو هبطت
في الغواسق، وإنما تختفي داخلها لتسود أحكام الظلمة.

«ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»^(١).

«هو الحي»^(٢).

وشعلة النور الجواله من رأس مخروط النور إلى قاعدته لا
تتطفئ أبداً، وللنور حسب انسكابه وتشعشعه عوالم عدة:

١ - العالم الإلهي الأقدس، وهو عالم الوجوب والغنى والإحاطة.

٢ - عالم الإمكانات، وينقسم إلى:

أ - عالم الأنوار القاهرة الطولية.

ب - عالم الأنوار القاهرة العرضية، وعنها تنشأ الأنواع
الأرضية والفلكية.

ت - عالم الأنوار الإسفهدية الفلكية^(٣).

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٦٥ .

(٣) الإسفهد قائد الجيوش ، والسهورودي يستعمل هذه الكلمة للتعبير عن
طبيعة ووظائف هذه الأنوار .

ث - عالم الأنوار الإسفهبديّة الإنسانية وغير الإنسانية.

ج - عالم المثل المجردة المنفصلة عن عالم الأشباح المعلقة، وعن عالم المثل الهندسية المجردة عن المادة، وعالم المثل هذا يختلف عن المثل الأفلاطونية، فالإنسان يمكن أن يرى فيه كلّ ما هو موجود في العالم الحسيّ من غنى وتنوع غير أنّه في حالة لطيفة لا مادّية.

ح - عالم البرزخ وهو عالمان: عالم الصياصي والشبكات، وعالم الغواسق والأجسام.

* * *

يعرض السهروردي أفكاره عن النور في كتابه «هياكل النور» فيرى أنّ فينا نوراً شارقاً لذيقاً، والأجسام تشاركت في الجسمية وتفاوتت في الاستتارة، ونفوسنا الناطقة أنوار قائمة بنفسها، والنفس هي قائم دلّت على الحيّ بذاته، نور الأنوار، المجرد عن الأجسام وعلائق الأجرام، وهو / المحتجب لشدة ظهوره / ولهذا فأنت / المخصوص بطبيعة النور في الإنسان / لا تغفل عن ذاتك مع إمكانية أن تتفصل أحياناً عن جزء من بدنك، لأنّه (أي هذا الجزء) خارج عن ذاتك النورانية، فأنت لست جملة هذه الأعضاء والأجزاء من البدن، وإنّما أنت وراء هذه الجملة.

وكما أن فينا نوراً فكذلك في الأفلاك، وهكذا فإن المعدّ للأفلاك جوهر عقلي، وحركة الكون إرادية، ولها إدراك كليّ، ولها نفوس ناطقة، وهي أولى بالذات الروحانية، إذ ليس لها نزعات شهوية أو غضبية ولا حيوانية.

وهو يعتبر الشوق والعشق سرّ الحركة الجوهرية لكل الموجودات في العالم، فواجب الوجود هو غاية جميع الموجودات، كمالات (أنوار شارقة) طالبة لكمالاتها، ساعية إلى تحصيل ذلك الكمال الكليّ (نور الأنوار).

هكذا في مجال الحركة نرى نظام الوجود، العلوي والأرضي، في صيغته الإشراقية، نظاماً حركياً شاملاً. فكل وحداته، صعوداً ونزولاً، مشاهدة وإشراقاً، متحركة في صورة ديناميّة دون انقطاع. ولكي تتجسّد نظريته فإنه غالباً ما يسندّها بنصوص اختصّت بها رسائله، ومنها رسالة جناح جبريل والتي سنأتي على ذكرها.

يقول في كتابه «المشارع والمطارحات»: «وإن لكل نوع من الأنواع المفارقة، والأتربة والعنصرية، كمالاً وعشقاً إلى ذلك الكمال، وإن تصوّر فقد ذلك الكمال هو شوق، ولولا العشق والشوق إليه (= الله، الكليّ الجمال) لما حدث حادث، ولا تكوّن كائن أصلاً».

وجميع الموجودات متناهية إلى عللها، وعللها متناهية إليه، أي إلى الذي نوريته غير متناهية الشدة، وهو نور الأنوار، واجب الوجود، نَظَمَ الوجود ورتَّبَه وحفظ نظامه باللانهاية، وهو قاهر بنوريته جميع الأنوار، وشدة نوريته حجاب لنوريته، فاخْتَفَاؤُه عنا لشدة ظهوره، والوجود كله منطوٍ في أسره.

فالأجرام، ومنها الأجسام، انطوت في قهر النفوس، والنفوس تنطوي في قهر نورية العقل، والعقول تنطوي في قهر نورية المعلول الأول، والمعلول الأول ينطوي في قهر نورية القيم نور الأنوار.

* * *

مما ساعد الفلسفة الإشراقية في تناول الحقائق الكبرى وتقديم تفسير لها هو ارتكازها على أمرين معاً:

- ١ - إقرارها أصول الكشف والشهود، وانطلاقها من رؤية كونية كلية قائمة على التفكير والعرفان (الحدس العرفاني والمعرفي).
- ٢ - اعتمادها على الاستدلال العقلي لتقرير الأصول والمبادئ وفي تناول المسائل (المنطق العقلي).

أما السعادة فيراها منوطة بالعلوم الحقيقية دون غيرها، والعلوم الحقيقية قسمان: ذوقية كشفية تتم بأنوار إشراقية، وبحثية

نظرية، والذوقية الكشفية كما أشار الشهرزوري في مقدمته لا يصل إليها إلا قلة من الحكماء وبالتحديد الحكماء المتألهون الفاضلون أمثال أرسطو، وأغاثاڤيمون، وهرمس، وإنبازقلس، وفيثاغورث، وسقراط، وأفلاطون.. وغيرهم وهؤلاء غير خالين من البحث. وقال عن أستاذه السهروردي «كان مبرزاً في الحكمتين الكشفية والبحثية، بعيد الغور فيما لا يدرك شأوه ولا يلحق غوره».

* * *

إنَّ ما وصل إليه السهروردي بإشراقيته، وما أتى به فلاسفة آخرون قبله، هو موضوع بحث طائفة من العلماء اليوم..

يقول العالم الفيزيائي جان أ. شارون: «إن كل المادة إذن تصبح حاملة للروح، وكل محاولة لإقامة تصوّر علمي حتى ولو كانت محاولة البيولوجيا إذا ما أقصت حقيقة الروح تصبح ملفقة ولاغية، إن الموقف العلمي الحالي يقوم على التمسك بأحسن نموذج تقدمه الفيزياء، وهو النموذج الذي يقرُّ بوجود الروح في كل جُزَيء من جزئيات المادة».

لقد كانت فكرة أنَّ الكواكب كائنات حية وذوات أنفس ناطقة كما عبر عنها السهروردي تبدو صعبة القبول، لكنَّ وصول

الإنسان إلى القمر ورحلات الفضاء عبر الكواكب حركت من جديد هذه الأفكار القديمة، وإنّ مشاهدة الأرض من الفضاء أعطت بارقة جديدة تتمثل في أنّ الكوكب ككل قد يكون كائناً حياً، وأنّ ملاحظة الاستقرار المتجانس والتوازن المذهل على سطح الكوكب وبيئته وبيولوجياه هو النظر إليه كمنظومة حية واحدة، أي ككائن حي كما أشار إلى ذلك السهروردي وصدر الدين الشيرازي وفلاسفة آخرون. ويضيف السهروردي قائلاً: «وللأفلاك أصوات غير معللة بما عندنا، ويجوز في الأفلاك أصوات ونغمات غير مشروطة بالهواء المصاكة».

وبمناسبة صدور كتاب «الوجه المتلاشي لغايا: التحذير النهائي» بقلم د. جيمز لفلوك، وكتاب «بحثاً عن غايا» لجون غريبين وماري غريبين، كتب «تيم فلانري» مقالاً في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس يقول فيه:

«تعود فكرة أن الأرض كائن حي إلى أفلاطون على أقل تقدير الذي اعتقد كما أفادنا «فرنسيس بيكون» بأن الكوكب «عبارة عن مخلوق حيّ وكامل وتام» ولكن د جيمس لفلوك وزميلته لين مارغوليس هما اللذان طوّرا من السبعينات من القرن العشرين فرضية علمية قابلة للاختبار رمت إلى البحث عن خواص الأرض التي تشي بأنها كائن حي، وتعرف هذه

الفرضية باسم «فرضية غايا» وتقول إنّ الحياة على الأرض تعمل على نحو تبقي شروط الحياة على سطح الكوكب موافقة للحياة نفسها»^(١).

هذا الوعي الكوني في نهر الكون.. في الكواكب، في الذرة.. الذي تحدث عنه «دافيد بوهم»، «لفلوك»، «شارون».. وغيرهم هو ذلك النور الشارق اللذيذ في الأفلاك والأبدان، الفائض عن النور الأتم الأفقر، والمشوق إليه، العاشق لذاته بذاته، هو «النفس» التي تحرك جميع الموجودات وتتظم قوانينها، وتحفظ توازنها واستقرارها.. كما يرى السهروردي.

والتوازن والاستقرار لا يعنيان انعدام التضاد، فالتضاد من ضرورة اللانهاية، ولولاه ما صح الكون من الفساد، ولولاه ما صح دوام الفيض على التجدد المستمر، ولم يحصل من النفوس الناطقة المبلغ اللامتاهي، ولولاه لانعدمت الحياة، فما هو شر بالنسبة لشخص ما إذا تم النظر إليه من خلال النظام الكوني فهو خير.

على أساس النور ابتنى السهروردي نظريته في المعرفة، فالنور عاشق بذاته لذاته، إذا تنزّل إلى البرازخ والغواسق

(١) المقال ترجمه توفيق الأسدي ونشر في جريدة شرفات. ع ١٠٧.

والصياصي الإنسانية انعطف إلى مبدئه الأتم الأقهر، واشتاق إليه بفطرته، فيجذبه النور الأقهر إلى قدسه، وهذا يعني أن هذه الأنوار الشارقة لا تحل في أجساد أخرى بعد صياصيتها (بعد موت الجسد) لكمال قوتها وشدة انجذابها إلى ينابيع النور، وإنما هي نزلت أصلاً إلى عالم «الظلمات الجسدية» لاستكمال معرفتها بعالم الجزئيات، واصطياد بعض الكمالات الممكنة، والعلوم الجزئية، ويشخص هذه الفكرة في قصته الغربية الغربية.

ثم يقع النور النازل المتصاعد على أفق الجلال، فيتشعشع من ذلك الأفق ويمد سائر الأنوار كي تصعد من جديد إلى النور الأول، مبتدأ الإشراق، وثمة أنوار صاعدة بذواتها لكمال قوتها، وأنوار أخرى في حاجة إلى مددات لاستكمال صعودها.

ومثلما انبثق العالم من إشراق الحق وانسكاب الأنوار وتشعشعها، فإن المعرفة تعني الوصول العيني إلى الحقيقة العينية، وذلك لا يتم إلا بتصاعد الأنوار الإسفهبديّة من جديد إلى مبتدئها بعد نزولها الأول، وبرحلة الأنوار النازلة الصاعدة، وبهذه الجوهرية الكلية المستمرة المتجددة تتحقق المعرفة.

هذا هو السهروردي، سيّد الوقت، وحكيم العصر، والمؤيد بالملكوت، وواضع أسس الحكمة الإشراقية، وأحد بناء المعرفة

الإنسانية، ومن أحيّطت حياته بهالة قدسية، وكانت شهرته تتقدمه إلى كلِّ بلد توجه إليه، قضى وهو في ريعان شبابه، ولو امتد به العمر لاستكمل ما بدأ، وأغنى الإنسانية بما كتب في نظرية المعرفة، ولأثرى المكتبتين العربية والفارسية بنصوصه الأدبية، النثرية والشعرية المتميزة.

سمفونية شعرية في العشق

لعل أجمل قصائد الشاعر الإشراقي الكبير شهاب الدين السهروردي هي قصيدته الحائية الشهيرة، إنها تقدم نموذجاً حياً لما يتصف به شعره من طبع ورونق وجمال وسلاسة وموسيقى تتبع من حركة النفس الداخلية العاشقة، بالإضافة إلى عمق المعاني ونبلها، وهي تجري بألفاظها المنتقاة، وعباراتها المجنحة، وإيقاعاتها المتدافعة كالنهر الهادر.

أَبَدًا تَحَنُّ إِلَى كُفِّ الْأَرْوَاحِ	وَوِصَالُكُمْ رِيحَانُهَا وَالْأَرْوَاحِ
وَقُلُوبُ أَهْلِ وِدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ	وَالْإِلَى لَذِيذِ لِقَائِكُمْ تَرْتَاحُ
وَأَرْحَمَتَا لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا	سِتْرَ الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى فَضَّاحُ
بِالسِّرِّ إِنْ بَاحُوا تَبَاحَ دِمَاؤُهُمْ	وَكَذَا دِمَاءُ الْعَاشِقِينَ تَبَاحُ
وَإِذَا هُمْ كَتَمُوا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ	عِنْدَ الْوِشَاةِ الْمَدْمَعُ السَّقَّاحُ
أَحْبَابُنَا مَاذَا الَّذِي أَفْسَدْتُمْ	بِجَفَائِكُمْ غَيْرِ الْفَسَادِ صَلَاحُ
خَفَضَ الْجَنَاحَ لَكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ	لِلصَّبِّ فِي خَفَضِ الْجَنَاحِ جُنَاحُ
وَبَدَتْ شَوَاهِدُ السَّقَامِ عَلَيْهِمْ	فِيهَا لِمُشْكِ أَمِّهِمْ إِضْاحُ

وإِلَى رِضَاكُمْ طَرَفَهُ طَمَاحُ
فَالْهَجْرُ لَيْلٌ وَالْوَصَالُ صَبَاحُ
فِي نُورِهَا الْمَشْكَاةُ وَالْمِصْبَاحُ
رَاقِ الشَّرَابِ وَرَقَّتِ الْأَقْدَاحُ
إِنْ لَاحَ فِي أَفْقِ الْوِصَالِ صَبَاحُ
كَتَمَانِهِمْ فَنَمَا الْغَرَامُ فَبَاحُوا
لَمَّا دَرَوْا أَنَّ السَّمَاحَ رَبَّاحُ
فَقَدَّوْا بِهَا مُسْتَأْنَسِينَ وَرَاحُوا
بَحْرَ وَشِدَّةِ شَوْقِهِمْ مَلَّاحُ
حَتَّى دَعَا فَأَتَاهُمُ الْمَفْتَاحُ
أَبَدًا فَكُلُّ زَمَانِهِمْ أَفْرَاحُ
فَتَهَتَّكُوا لَمَّا رَأَوْهُ وَصَاحُوا
حَبُّ الْبَقَا فَتَلَّاشَتْ الْأَرْوَاحُ
إِنَّ التَّشْبَهَ بِالْكَرَامِ فَلَاحُ
فِي كَاسِهَا قَدْ دَارَتْ الْأَقْدَاحُ
لَا خَمْرَةَ قَدْ دَاسَهَا الْفَلَاحُ
غَرَضُ النَّدِيمِ فَنَعَمِ ذَاكَ الرَّاحُ
وَلَهُ بِذَلِكَ رَنَّةٌ وَتِيَّاحُ
وَإِلَى لِقَاءِ سِوَاهِ مَا يَرْتَاحُ

فَإِلَى لِقَاكُمْ نَفْسُهُ مُرْتَاحَةٌ
عُودُوا بِنُورِ الْوَصْلِ مِنْ غَسَقِ الدُّجَى
صَافَاهُمْ فَصَفَّوْا لَهُ فَقُلُوبُهُمْ
وَتَمَتَّعُوا فَالْوَقْتُ طَابَ لِقَرِيبِكُمْ
يَا صَاحِ لَيْسَ عَلَى الْمُحِبِّ مَلَامَةٌ
لَا ذَنْبٌ لِلْعُشَّاقِ إِنْ غَلَبَ الْهَوَى
سَمَحُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا بَخِلُوا بِهَا
وَدَعَاهُمْ دَاعِي الْحَقَائِقِ دَعْوَةٌ
رَكِبُوا عَلَى سَنَنِ الْوَفَا وَدُمُوعِهِمْ
وَاللَّهِ مَا طَلَبُوا الْوُقُوفَ بِبَابِهِ
لَا يَطْرِبُونَ بِغَيْرِ ذِكْرِ حَبِيبِهِمْ
حَضَرُوا وَقَدْ غَابَتْ شَوَاهِدُ ذَاتِهِمْ
أَفْنَاهُمْ عَنْهُمْ وَقَدْ كَشَفَتْ لَهُمْ
فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ
قُمْ يَا نَدِيمِ إِلَى الْمَدَامِ فَهَاتِهَا
مِنْ كَرَمِ أَكْرَامِ بَدَنِ دِيَانَةٍ
هِيَ خَمْرَةُ الْحُبِّ الْقَدِيمِ وَمُنْتَهَى
وَكَذَاكَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ أُسْكِرَتْ
وَصَبَّتْ إِلَى مَلَكُوتِهِ الْأَرْوَاحُ

وَكَاثِمًا أَجْسَامَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ فِي ضَوْئِهَا الْمَشْكَاةَ وَالْمَصْبَاحَ
مَنْ بَاغَ بَيْنَهُمْ بِذِكْرِ حَبِيبِهِ دَمَهُ حَلَالًا لِلسَّيُوفِ مُبَاحًا

أهي قصيدة في العشق أم رسالة فلسفية؟

وهل ينفصل العشق عن الإشراق؟ العشق علّة إشراقات النور وحركة الكون، والسهروردي هو أول فيلسوف إشراقي يؤلف رسالة في العشق كما أشار إلى ذلك الشهرزوري في «نزهة الأرواح وروضة الأفراح». ولا نجانب الصواب إذا قلنا إنّ هذه القصيدة هي الهيكل الشعري لفلسفته الإشراقية من غير أن يتقلها بالمصطلحات، وبمثل هذا الشعر العذب المشرق غزا شهاب الدين قلوب الناس، وما كان شعره إلا النتاج الإبداعي لعشقه الإلهي وفلسفته الإشراقية التي تقيم تفسير الوجود على أساس النور وقواعده في الوقت الذي كان فيه العرفان (= التصوف) يقيم تفسير الوجود على أساس الأسماء والصفات.

إنّ الحنين الذي تتحدث عنه الأبيات هو واحد من أهم قواعد فلسفة الإشراق، فالنور عاشق بذاته لذاته، فإذا هبط من موطنه الأقدس إلى البرازخ والظلمات الدنيوية (= كل ما هو جسم مادي أو بدن) اشتاق بجبِلَّتْه، وجذبه النور العلي اللامتناهي الأتم الأنوار إليه، فخرج وارتدّ ثانية إلى مبدئه، والأنوار الإسفهبديّة

تستطيع العودة إلى مبدئها بتحرير ذواتها مما يتقلها في عالم
البرازخ المادي والجسماني، وهذه الأنوار نوعان:

١ - أنوار متصاعدة بمعينات خارجية.

٢ - أنوار متصاعدة بذواتها، وأصحابها هو الأولياء
والمعصومون.

ما يميز هذه القصيدة هو ذلك التمازج الرائع بين الصور
الرمزية ومدلولاتها الشوقية والعشقية، ورمزية الخمرة الإلهية
التي لم يعتصرها فلاح، كلما احتساها ازداد عشقاً وبوحاً
بالأسرار، وبسبب هذا البوح - غير المشروع في أعراف
المتصوفة - قُتل السهروردي، والذي كان غالباً ما يجسد
نظريته المعرفية بالإبداع الشعري والنثري.

قصة الغربة الغربية^(١)

تعتبر قصة «الغربة الغربية» من بواكير الإبداع النصي في الفلسفة الإشراقية وتمثل رحلة البحث عن حقيقة النفس وهي على غرار «رسالة الطير» لابن سينا، و«رسالة حي بن يقظان» لابن سينا أيضاً، وهي نموذج رائع للقصة الرمزية.

يقول السهروري:

سافرت مع أخي عاصم من ديار ما وراء النهر لنصيد طائفة من طيور لجة الخضراء فوقعنا بغتة في قرية الظالم أهلها، أعني مدينة القيروان، فلما أحسَّ أهلها أننا قدمنا عليهم ونحن من أولاد الشيخ المشهور هادي بن أبي الخير اليماني، أحاطوا بنا وأخذونا وقيدونا بسلاسل وأغلال من حديد، وحبسونا في قعر بئر لا نهاية لسمكها.

وكان فوق البئر المظلة التي عمّرت بحضورنا قصرَ مشيّد عليه أبراج عالية، فقيل لنا: لا جناح عليكم إن سعدتم القصر

(١) حققها وقدمها وشرحها هنري كوربان. مجموعة دوم مصنفات إشراق.

متجردين مساءً، أما عند الصباح فلا بد من الهويّ في غيابة
الجب، إلّا أنا في آونة المساء نرتقي القصر مشرفين على
الفضاء ناظرين من كوة، فربما تأتينا حمامات من أيوك اليمن
مخبرات بحال الحمى، وأحياناً تزورنا بروق يمانية تومض من
الجانب الأيمن الشرقي وتخبّرنا بطوارق نجد، وتزيدنا رياح
الأراك وجداً على وجد، فنتحنّ ونشتاق إلى الوطن.

فبينما نحن في الصعود ليلاً والهبوط نهراً إذ رأينا الهدهد
مسلياً في ليلة قمراء، وفي منقاره رقعة صدرت من شاطئ
الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وقال لنا: إني
أحطت بوجه خلاصكما وجئتكما من «سبأ بنبأ يقين»، وهو ذا
مشروح في رقعة أبيكما.

فلما قرأنا الرقعة فإذا فيها أنه من الهادي أبيكما، وأنه : بسم
الله الرحمن الرحيم، شوقناكم فلم تشناقوا، ودعوناكم فلم ترتحلوا،
وأشرناكم فلم تفهموا. وأشار في الرقعة إليّ بأنك يافلان إن
أردت أن تتخلص مع أخيك فلا تتيا في عزم المسير، واعتصما
بحبلنا، وهو جوهر الفلك القدسي المستولى على نواحي
الكسوف، فإذا أتيت وادي النمل فانفض ذيلك، وقل : الحمد لله
الذي أحياني بعد ما أماتني «وإليه النشور»، وأهلك أهلك (=)
أهلك الشهوة)، واقتل امرأتك «إنها كانت من الغابرين»، وامض

حيث تؤمر فـ«إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» واركب في السفينة، وقل «باسم الله مجريها ومرسيها».

وشرح في الرقعة جميع ما هو كائن في الطريق، فتقدم الهدد وصارت الشمس فوق رؤوسنا إذ وصلنا طرف الظل، فركبنا في السفينة وهي تجري بنا «في موج كالجال»، ونحن نروم الصعود على طور سيناء حتى نزور صومعة أبينا، وحال بيني وبين ولدي (= الروح الحيواني) «الموج فكان من المغرقين»، وعرفت أنّ قومي «موعدهم الصبح أليس الصبح بقریب؟» وعلمت أن القرية التي كانت تعمل الخبائث يجعل عاليها سافلها، ويمطر «عليها حجارة من سجيل منضود». فلما وصلنا إلى موضع تتلاطم فيه الأمواج، وتتدحرج المياه، أخذت ظئري التي أرضعتني وألقيتها في اليم (= الروح الطبيعية).

وكنا نسير في جارية «ذات ألواح ودر» خيفة ملك من ورائنا «يأخذ كل سفينة غصبا» والفلك المشحون قد مر بنا على جزيرة يأجوج ومأجوج إلى الجانب الأيمن من الجودي، وكان معي من الجن (= قوة الخيال والفكر) من يعمل بين يديّ، وفي حكمي عين القطر (= الحكمة، القوة الفطرية) فقلت للجن «انفخوا حتى صار مثل النار» فجعلت سداً حتى انفصلت عنهم، وتحقق «وعد ربي حقاً».

رأيت في الطريق جماجم عاد وشمود، وطففت في تلك الديار
«وهي خاوية على عروشها» وأخذت الثقليين مع الأفلاك،
وجعلتها مع الجن في قارورة صنعتها أنا مستديرة وعليها
خطوط كأنها دواير (= الدماغ)، فقطعت الأنهار من كبد السماء،
فلما انقطع الماء عن الرحي انهدم البناء فتخلص الهوى إلى
الهواء، وألقيت فلك الأفلاك على السماوات، حتى طحن الشمس
والقمر والكواكب، فتخلصت من أربعة عشر تابوتاً (= القوة
الجاذبة والماسكة والدافعة.. الخ) وعشرة قبور (= الحواس
الظاهرة والباطنة) عنها ينبعث ظلّ الله، حتى يقبضني إلى القدس
«قبضاً يسيراً» بعد أن «جعل الشمس عليه دليلاً».

ولقيت سبيل الله ففطنت «أنّ هذا صراطي مستقيماً»، وأختي
وأهلي (= هيولى الأجسام) قد أخذتها «غاشية من عذاب الله:
بياتاً، فباتت في قطع من الليل مظلماً، وبها حمى وكابوس
يتطرق إلى صرع شديد. ورأيت سراجاً فيه دهن (= العقل
الفعال، والدهن قوام الأجساد) وينبجس منه نور ينتشر في أقطار
البيت، ويشتعل مشكاتها، ويشعل سكانها من إشراق نور الشمس
عليهم، فجعلت السراج في فم تتين ساكن في برج دولاب، تحته
بحر قلزم، وفوقه كواكب ما عَرَفَ مطارح أشعتها إلا بارئها
«والراسخون في العلم».

ورأيت الأسد والثور قد غابا (= الغضب والشهوة)، والقوس
والسرطان قد طويا في طيِّ تداور الأفلاك، وبقي الميزان
مستوياً إذا طلع النجم اليماني (= النفس الكلية) من وراء غيوم
رقيقة متألقة مما نسجته عناكب زوايا العالم العنصري في عالم
الكون والفساد. وكان معنا غنم (= الخوف) فتركناها في
الصحراء، فأهلكتها الزلازل، ووقعت فيها نار الصاعقة.

ولما انقطعت المسافة، وانقرض الطريق «وفار التنور» من
الشكل المخروط (= القلب) رأيت الأجرام العلوية، اتصلت بها،
وسمعت نغماتها ودستاناتها، وتعلمت إنشادها، وأصواتها تقرر
سمعي كأنها صوت سلسلة تُجرُّ على صخرة صماء فتكاد تنقطع
أوتاري وتتفصل مفاصلي من لذة ما أنال، ولا يزال الأمر
يتكرر عليّ حتى انقشع الغمام، وتخرقت المشيمة (= ارتفع
الحجاب). وخرجت من المغارات والكهوف حتى تقضيت من
الممرات متوجهاً إلى عين الحياة، فرأيت الصخرة العظيمة على
قُلة جبل كالطود العظيم، فسألت عن الحيتان المجتمعمة في عين
الحياة المتتعة المتلذذة بظل الشاهق الأعظم: إن هذا الطود ما
هو؟ وما هذه الصخرة العظيمة؟ فاتخذ واحدٌ من الحيتان سبيله
في البحر (= العلم) سرباً فقال: ذلك ما كنت تبغي، وهذا الجبل
هو طور سيناء (= فلك الأفلاك)، والصخرة صومعة أبيك (=

العقل الكلي)، فقلت وما هؤلاء الحيتان؟ فقال؟ أشباهك، أنتم بنو أب واحد، ووقع لهم شبيهه واقعتك، فهم أخوانك. فلما سمعت وحققت عانقتهم ففرحت بهم وفرحوا بي.

وصعدت إلى الجبل، ورأيت أبي شيخاً كبيراً تكاد السماوات والأرضون تتشق من تجلي نوره، فبقيت تايهاً متحيراً منه، ومشيت إليه فسلم عليّ فسجدت له، ولذت أنمحق في نوره الساطع، فبقيت زماناً، وشكوت إليه من حبس قيروان، فقال لي: نعم تخلصتَ إلا أنك لا بدّ راجع إلى السجن الغربي، وإنّ القيد بعد ما خلعتَه تماماً (= جنّت بالفكر والإلهام ولم تمت بعد)، فلما سمعت طار عقلي، وتأوهت صارخاً صراخ المشرف على الهلاك، وتضرعت إليه فقال: أما العودُ لك فضروري الآن، ولكنني أبشرك بشيئين: أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجيء إلينا والصعود إلى جنّتنا متى شئت، والثاني: أنك تتخلص في الأخير إلى جانبنا تاركاً البلاد الغربية بأسرها مطلقاً، ففرحت بما قال.

ثم قال لي: اعلم أنّ هذا هو جبل طور سيناء، وفوق هذا جبل طور سينين مسكن والدي وجدّك، وما أنا بالإضافة إليه إلا مثلك بالإضافة إليّ، ولنا أجداد آخرون، حتى ينتهي النسب العظيم إلى الملك الذي هو الجد الأعظم الذي لا جد له ولا أب، وكلنا عبيده،

وبه نستضيء، ومنه نقتبس وله البهاء الأعظم، وله الجلال الأرفع، والنور الأقهر وهو فوق فوق، ونور النور، وفوق النور أزلاً أبدياً وهو المتجلي لكل شيء بكل شيء، وكل شيء هالك إلا وجهه (= الله واجب الوجود).

فأنا في هذه القصة (= اللذة)، إذ تغيّر الحال عليّ وسقطت من الهواء في الهاوية بين قوم ليسوا بمؤمنين، محبوساً في ديار المغرب، وبقي معي من اللذة ما لا أطيق شرحه، فانتحبت وابتهلت، وتحسرت على المفارقة، وكانت تلك الراحة أحلاماً زائلة على سرعة.

نجانا الله من أسر الطبيعة وقيد الهبولى «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون»، «وقل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون»، والصلاة على نبيه وآله أجمعين

* * *

من الواضح أنّ هذه القصة هي تمثيل فني قصصي لفلسفته في الأنوار وتشعشعها، وهبوطها وصعودها، وخلوص النفس من عالم الغواسق والأجساد، ونظراً لأهمية القصة نورد بعضاً من الرموز والشروحات الضرورية الأخرى عدا ما شرح بين قوسين، وهي من تحقيق وشرح هنري كوربان.

لما سافرت أي (ضمير المتكلم، الروح المسافرة
الهابطة من منشئها العلوي).

مع أخي عاصم أي (القوة الفطرية المعرفية العصمة من
الضلال).

من ديار ما وراء النهر أي (العالم العلوي).

إلى بلاد المغرب أي (عالم الهيولى الغريب عن عالم
الروح).

لنصيد طائفة من طيور أي (العلوم الجزئية، الكمالات الممكنة
للنفس).

ساحل اللجة الخضراء أي (العالم المادي المحسوس، العقل
المستفاد).

القرية الظالم أهلها قيراوان أي (الدنيا، العالم الأرضي، الجسد).

فلما أحس قومها أي (القوى الترايبية الجسمانية، غواسق
الأبدان).

الشيخ الهادي بن الخير اليماني أي (الفيض الأول، العقل الفعّال،

واليماني لقوله (٢): إني لأجد

نفس الرحمن من قبل اليمن.

مقيدين بسلاسل وأغلال أي (الغرائز والشهوات، الهيئات الدنيوية
الردية).

حبسونا في قعر بئر أي (البدن، العالم الظلماني، عالم العناصر).
البئر التي عمّرت بحضورنا أي (بخلول الروح في الجسد).
قصر مشيد أي (النفوس الفلكية).

عليها عدة أبراج أي (الأفلاك).
متجردين إذا أمسيتم أي (إذا نمتم، لأنه في النوم تتعطل
الحواس وتحرر الروح).

أما عند الصبح أي (العودة إلى أسر المحسوسات).
الهويّ في غيابة الجب أي (حبس البدن).
يأجوج ومأجوج أي الخيالات الفاسدة.

الجانب الأيسر من الجودي أي العالم العقلاني.
الشمس فوق رؤوسنا أي قرب الموت.

وصلنا طرف الظل أي مفارقة الهيولى عن الصورة، أي
عن النفوس الجزئية المجردة.

ظلمات بعضها فوق بعض أي كثافات الهيولى والأجسام.

رسالة أصوات أجنحة جبريل

يمتلك السهروردي خيلاً جامحاً يأتي بكلّ ما هو غريب ومدهش، ولغة مشرقة، وقدرة على إجراء حوار مركز عميق الفكر، كلّ ذلك في فانتازيا قصصية أو حوارية جعلته متفرداً، ومن السابقين في التأسيس للقصة الرمزية الفلسفية والصوفية، و«صوت أجنحة جبريل» نموذج لهذا الجنس الأدبي.

يقول شيخ الاشراف:

لَمَّا انطلقتُ من حُجرة النساء، وتخلصتُ من بعض قيود ولفائف الأطفال. كان ذلك في ليلة، انجاب فيها الغسقُ الشّهبيُّ الشكل، مستطيراً عن قبة الفلك اللازوردي، وتبددتُ الظلمةُ التي هي أخت العدم، على أطراف العالم السفلى.

وبعد أن أمسيّتُ في غاية القنوط من هجمات النوم، أخذتُ شمعاً في يدي، متضجراً، وقصدتُ إلى رجال قصر أُمي. وطوّفتُ في ذلك الليل، حتى مطلع الفجر. وعندئذ، سنح لي هوسُ دخولِ دهليز أبي. وكان لذلك الدهليز، بابان: أحدهما إلى

المدينة، والآخر إلى الصحراء والبساتين. قُمْتُ، فأغلقتُ الباب الذي يؤدي إلى المدينة إغلاقاً محكماً، وبعد رتْجِه، قصدتُ إلى الفتق الذي يؤدي إلى الصحراء. وعندما رفعتُ الترس، نظرتُ، وإذ عشرةُ شيوخٍ، حسان السيماء، قد اصطفوا هناك صفّاً صفّاً.

وقد أعجبتني هيئتهم وجلالتهم وهيبتهم وعظمتهم وسناهم، وظهرتُ فيَّ حيرةٌ عظيمةٌ من جمالهم وروعتهُم، حتى انقطعتُ عني مُكنةٌ نطقي. وفي وَجَلٍ عظيمٍ، وفي غايةٍ من الارتجاف، قَدَّمْتُ رجلاً وأخرتُ أخرى. وعندئذٍ قلتُ لنفسِي: لنتشجعُ، ولنكنْ مستعدين لخدمتهم، وليكن ما يكون.

سرتُ رويداً إلى الأمام، للسلام على الشيخ الذي وقف في طرف الصف، غير أنه بسبب غاية حسن خُلقه، سبقني بالسلام، وتبسّم في وجهي تبسُّماً لطيفاً، حتى تجلّى شكلُ نواجذه أمام حدقتي. ورغم مكارم أخلاقه وشيَمه بقيتُ مهابته تغلب على نفسي.

سألته: من أين أقبل هؤلاء السادة، إن جاز لي السؤال؟

أجابني الشيخُ الذي على طرف الصف، قائلاً: إننا جماعة متجربين، وقد وصلنا إليك من كجا آباد.

لم أفهم مقاله.

سألته: في أي إقليم توجد تلك المدينة؟

قال: في إقليم لا تجد السبابة إليه متجهاً. وإذ ذاك علمت أنه شيخٌ مطَّلَع.

قلت: أخبرني بفضلكم، ما الذي يشغلكم أكثر أوقاتكم؟

قال: إن حرفتنا الخياطة، وكل واحدٍ منا يحفظ كلام الرب عن سلطانه، وإننا لسائحون.

سألته: ولماذا يلزم الصمت هؤلاء الشيوخ، الذين يقفون على رأسك؟

فأجاب: لأن أمثالكم ليسوا أهلاً لمحاورتهم، أنا لسانهم، وأما هم فلا يكلمون أشباهك.

قلت: أتسبحون الله عزَّ وجلَّ؟

قال: الاستغراق في المشاهدة يشغلنا عن التسبيح، وإن كان هناك تسبيح، فإنه ليس بواسطة الألسن والجوارح، ولا بحركةٍ واهتزازٍ وما إليه .

قلت: هل تعلَّمُني علم الخياطة؟

تبسَّم وقال: للأسف، ليس لأشباهك ولنظرائك قِبَلٌ بهذا، فإن ذلك العلم غير ميسَّر لنوعك، وذلك أن خياطتنا لا تتعلق بعمليةٍ

وَقَصِدْ وَآلَةً، لَكِنِّي سَأَعْرِفُكَ مِنْ عِلْمِ الْخِيَاطَةِ، قَدْرَ مَا يُمْكِنُكَ مِنْ
تَصْلِيحِ خَرَقَتِكَ الْخَشَنَةِ الْمَرْقُوعَةِ.

وقد علمني ذلك القدر من العلم..

ثم قلت: عَلَّمَنِي الْآنَ كَلَامَ اللَّهِ.

قال: إِنَّ الْمَسَافَةَ عَظِيمَةً، وَمَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَلَا
يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنِّي أَعَلَّمُكَ قَدْرَ مَا
أَنْتَ مَيَسَّرَ لَهُ! وَأَحْضِرْ لَوْحًا وَعَلَّمَنِي حُرُوفَ هَجَاءٍ عَجِيبَةٍ،
حَتَّى إِنَّنِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ بِوَاسِطَةِ الْهَجَاءِ، مَعْنَى كُلِّ سُورَةٍ مِنْ
السُّورِ.

ثم قال: الَّذِي لَا يَفْهَمُ هَذَا الْهَجَاءَ، لَا يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ سُورِ
كَلَامِ اللَّهِ، عَلَى مَا يَنْبَغِي؛ وَأَمَّا الَّذِي أَطَّلَعَ عَلَى أَحْوَالِ ذَلِكَ
الْهَجَاءِ، فَقَدْ يَظْهَرُ فِيهِ رَسُوخٌ وَمَتَانَةٌ.

وَعِنْدُنَا تَعَلَّمْتُ عِلْمَ الْأَبْجَدِ. وَبَعْدَ إِتِمَامِ دِرَاسَتِي إِيَّاهُ، نَقَشْتُ
حُرُوفَهُ عَلَى اللَّوْحِ، عَلَى قَدَرِ مَا كَانَ فِي مَرْتَقَى قُدْرَتِي،
وَمَسْرَى طَاقَتِي. وَعِنْدُنَا ظَهَرَتْ لِي مِنْ عَجَائِبِ مَعَانِي كَلَامِ
الرَّبِّ، عِزٌّ سُلْطَانُهُ، مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ الْبَيَانِ، وَحَدَّةٌ. وَكَلِمَا
طَرَأَتْ لِي مُشْكَلَةٌ، عَرَضْتُهَا عَلَى شَيْخِي وَهُوَ يَزِيحُ إِشْكَالَهَا.

ثم دار حديثنا حول نفث الروح، وقد أشار الشيخُ إِلَى أَنَّ
الرُّوحَ يَشْتَقُّ مِنْ رُوحِ الْقُدْسِ. وَعِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ نِسْبَةِ مَا بَيْنَهُمَا،

أجاب قائلاً: إن كل ما يتحرك في أربعة أرباع العالم السفلى، يشترك من أجنحة جبرائيل.

ولما باحثت الشيخ في كيفية هذا النظام، قال: اعلم أن للحق سبحانه وتعالى، عدة كلمات كبرى، تنبعث من كلماته النورانية، أي من شعاع سيماء وجهه الكريم. وبعضها فوق بعض.. وآخر تلك الكلمات: جبرائيل عليه السلام. وأرواح الآدميين تنبعث من تلك الكلمة الأخيرة.. الآدميون نوعٌ واحد، ومن له روحٌ فله كلمة. ومن آخر الكلمات الكبرى، تظهر كلماتٌ صغرى من غير حدٍّ، على ما أشير إليه في الكتاب الرباني بقوله (ما نفدت كلمات الله) وقال (لَنفَدَ البحر قبل أن تنفد كلمات ربي).

أما الكلمات الكبرى، فهي التي قيل عنها في الكتاب الإلهي (فالسابقات سبقاً) وأما قوله (فالمدبرات أمراً) فهم الملائكة، محرّكو الأفلاك، وهى الكلمات الوسطى. وكذلك، فإن قوله تعالى (وإنا لنحنُ الصّافون) إشارة إلى الكلمات الكبرى، وقوله (إنا لنحنُ المسبّحون) إشارة إلى الكلمات الوسطى. ولأجل هذا تقدّمت عبارة (الصافون) في كل مكان من القرآن المجيد، إذ قال: (والصّافّاتِ صَفًّا، فالزاجرات زجراً) وفى هذا غورٌ بعيد، لا يليق استيعابه بهذا المحل! وقد تُستعمل «الكلمة» في القرآن أيضاً، بمعنى السر.

قلت للحكيم: أخبرني الآن عن جناح جبرائيل.

قال: اعلمْ أنَّ لجبرائيل جناحين، أحدهما عن يمينٍ وهو نورٌ محض، وهذا الجناح ينضاف مجرد وجوده إلى الحق. وأما الجناح الأيسر، فتمتد عليه بقعةٌ سوداء، كأنها الكلفُ الذي يظهر في وجه القمر، أو كأنها تذكرنا بالألوان التي على قدم الطاووس. وفي هذا إمكان وجوده، الذي ينصرف جانبٌ منه إلى العدم. فإذا نظرت ما لجبرائيل من الوجود بجود الحق، فإنه يوصف بوجوب الوجود. وإذا نظرت إليه بقدر استحقاق ذاته، فإنه يوصف بالعدم.. فهذان المعنيان، ممثلان في جناحي جبرائيل: الأيمن إضافته إلى الحق، والأيسر استحقاقه في ذات نفسه. كما قال الحق سبحانه وتعالى (وجاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع).. وإذا وقع من أوج القدس شعاع، ينشأ منه نفسٌ يسمونها كلمةً صغرى. ألا ترى أنَّ هذا، ما قاله الحق تعالى (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) فللكافرين أيضاً كلمة. غير أن تلك الكلمة، صدىٌّ ممزوجٌ بحسب ما عليه أنفسهم.

ومن الجناح الأيسر، الذي يمتد عليه قدرٌ من الظلمة، يهبط ظلٌ هو عالم الزور والغرور. ويشير إلى شعاع الجناح الأيسر، ما ورد في القرآن الكريم (وجعل الظلمات والنور) فإن تلك

الظلمة، التي نُسبت إلى فعل (جعل) أصبحت عالم الغرور. وأما ذلك (النور) الذي ورد ذكره بعد الظلمة، فهو شعاع الجناح الأيمن.. وبهذا المعنى قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) إذ إنَّ الكلمة أيضاً من شعاعه. وكذلك قوله مثلاً، (كَلِمَةً طَيِّبَةً) فهي كلمة شريفة نورانية، من بين الكلمات الصغرى.

وإن لم تكن تلك الكلمة الصغرى في غاية الشرف، فكيف استطاعت أن تصعد إلى حضرة الحق تعالى. وأما أن الكلمة، والروح، تدلان على معنى واحد، فإن علامة ذلك (إليه يصعد الكلم الطيب) وكذلك (تخرج الملائكة والروح إليه) فإن عبارة (إليه) ترجع في الحالتين إلى الحق جَلَّتْ قدرته. وعلى هذا المعنى، تدل أيضاً (النفس المطمئنة) إذ قال (ارجعي إلى ربك)، وعالم الغرور، ليس إلا صدىً وظلاً لجناح جبرائيل، أعنى لجناحه الأيسر. بينما تصدر الأنفس المضیئة، من الجناح الأيمن.

قلت للشيخ: فما هي، في آخر أمرها، صورة جناح جبرائيل؟
أجاب: يا عاقل، كل هذه الأشياء ليست إلا رموزاً، إن عِلِمَتْها على ظاهر معناها، كانت تخيلات لا حاصل لها.

قلت: وأين القرية التي قال الحق تعالى عنها: (أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها)؟

قال: ذلك عالم الغرور، الذي هو أليق محلّ للكلمة الصغرى. ثم إن الكلمة الصغرى أيضا قرية، لأن الله تعالى قال (تلك القرى نقصُ عليك من أنبائها) و(منها قائم وحصيد) فهي كلمات الحق تعالى، كبيرة كانت أو صغيرة.

وعندما ارتفع على قصر أبي، فجر النهار. أغلق الباب الخارجي وفتح باب المدينة، وذهب التجار إلى أشغالهم، وتغيّبتُ عني جماعة هؤلاء الشيوخ، وبقيتُ في حسرة متشوقاً إلى صحبتهم، عاضاً أناملِي، وصارخاً: ياويلي، إظهاراً لعظمة حيرتي.. ولكن لا فائدة بعد.

يقول د. يوسف زيدان في شرح بعض ما جاء في الرسالة: قبل تقديم الإشارة الشارحة لهذا النص العجيب، لا بد من لفت الأنظار إلى أن لهذه القصة ديباجة (مقدمة) احتوت على قصة أخرى، ملخصها أنّ أحد المنكرين على الصوفية، اعترض على أقوالهم واعتبرها هذياناً.. يقول السهروردي في ديباجة القصة: حدث في يوم من الأيام، في محفل ناس قد أصاب بصرهم الرمذ، أن رجلاً سخر بمناصب سادات الطريقة وأئمتها. ولقصر نظره، تكلم من غير روية في مشايخ السلف. ولأجل تقوية رأيه المنكر، استهزأ بمصطلحات المتأخرين، حتى بلغت جسارته أن

أورد حكاية عن الأستاذ أبي عليّ الفارمذي، رحمه الله، قائلاً:
إنه سُئِلَ لِمَ سَمَّى ذُوو الخرقَة الزرقاء بعض الأصوات أصوات
أجنحة جبرائيل؟

فأجاب: اعلم أنّ أكثر الأشياء التي تشاهدها حواسك، تتبعث
من أجنحة جبرائيل! وقال للسائل: إنك أنت أحد أصوات أجنحة
جبرائيل.. وقد أبى ذلك الخصم المتعسف، أن يعترف بمثل هذا
الكلام قائلاً: ماذا يمكن أن يكون معنى هذه الكلمة إلا هذياناً
مزخرفاً؟ ولما بلغ تجاسره إلى هذا الحد، شمرتُ عن ساعد
الجد، لأزجره.

وهكذا كان ذلك، هو السبب في تأليف السهروردي لهذه
القصة الرمزية التي ابتدأها بانطلاق الروح من أسر الطبيعة
(حجرة النساء) وارتقائها عن أحكام المحسوس (قيود ولفائف
الأطفال) بملازمة الرياضات الصوفية والمجاهدات (الشموع)
التي تكشف ظلام الوجود الحسي.

والجسم الإنساني هو المقصود بقوله «قصر أُمي» لأنه صنعة
الطبيعة، أما العالم العلوي (الروحاني) فهو مقصوده بقوله
«قصر أبي».. والشيوخ المتجرّدون، هم العقول السماوية التي
لا اتصال بينها وبين العقل الإنساني، إلا من خلال حلقة واحدة،

هي (العقل الفَعَّال) الذي يمثل سقف العقل الإنساني، وقاعدة العقول السماوية العلوية.

وجبريل في النص، هو المعادل الموضوعي لروح القدس! ونتاج حفيف جناحيه، هي الموجودات الكلية والأنواع، والموجودات الجزئية والشخص.. ولن أزيد هنا في بيان (دلالات) هذا النص الرمزي، لأن المراد من إيراد ما قدَّمناه، ليس التعرفُ إلى (أفكار) السهروردي الإشراقية، وإنما الاقتراب من نصٍّ تراثيٍّ فريدٍ، مهجورٍ، والتعرف إليه أسلوبياً.. وفنياً.. وأديباً.

حكايات بلغة النمل^(١)

(لغة موران)

تتألف هذه الرسالة من ١٢ فصلاً وهي نماذج للتربية الروحية تساعد الإنسان السالك على التغيير الداخلي لذاته، فهي تؤثر من باطن، وتدعو الإنسان لأن يقف ويستبطن ذاته ليعثر على جوهرها، وعندئذ سيهتدي إلى طريق النجاة، ثم يؤكد بقواعد وسلوكيات المجاهدة والمعاناة للوصول إلى عالم الكمال والخلص من واقع محكوم برقبة القيود المادية والغرائز والمنافع الدنيوية الشخصية.

يقول في مقدمة الرسالة:

حمداً لمبدع كل شيء، وفي الحقيقة، فإن جميع المخلوقات تتأهب للاعتراف بأن وجود الكل أو وجود كل الأشياء ليس

(١) ترجمها عن الفارسية د. عادل محمود بدر، أستاذ مساعد بكلية آداب

طنطا، دكتوراه في فلسفة الملا صدر الشيرازي

مطلوباً إلا لكي تشهد (الجوهر)، وبارك اللهم على محمد المختار سيد أولاد البشر وآله وسلم. ذلك أنّ واحداً من الأصدقاء المؤيدين، والذي يمم وجهه شطر الوجود الضعيف قد التمس مني وسألني أن أكتب قليلاً من العبارات التي تشير إلى قواعد ونهج السلوك، ووعدني بحفظها عن غير أهلها من الأشخاص إن شاء الله وكانت هذه العبارات أو الجمل حكايات تسمى لغة النمل وبالله التوفيق».

الفصل الأول

من أعماق الظلام برزت قافلة من النمل ذات عدد قليل مطوقة الخاصرة من كمائنهما، واستقرت أولاً ثم هامت في الصحراء لكي تحصل على قوتها. وبالصدفة كانت هناك بعض البراعم النابتة التي احتلت المنطقة لمشاهدتها. وفي الصباح حيث قطرات الندى تتساقط على وجوه البراعم.

سألت نملة منهم الأخرى: ما هذا؟

قال البعض: إنّ منبع هذه القطرات هو الأرض.

وقال الآخرون: إنّها من البحر.

وفي حالة احتدام الجدل نهضت وسطهم نملة حاذفة وقالت: انتظروا لحظة (لتروا). إنّ الطريق المائل له جاذبية نحو جهة

أصله، وميل للالتحام بمنبعه. وكلّ الأشياء إنما تتجذب نحو اختيارها (أو لعل المقصود هو أنها تتجذب بمحض اختيارها، أو أنّ اختيارها يجذبها نحو أصلها)، ألا ترون أن طين الأرض مقذوف تجاه مركز الأرض، لأن أصله حجري ثقيل، ولأن القاعدة هي كلّ الأشياء تعود إلى أصلها. إنّ الأرض حفرة ممتدة، والطين في نهاية الأمر يهبط، وأي شيء تراجع للظلام الخالص يكون ظلاماً أيضاً لأنه مصدره. وعلى الجانب الآخر فإنّ النور الأبدي حقيقة تبدو أكثر وضوحاً بملاحظة الجوهر الشريف (الروح) والله يحرم أي فرض منطقي في الاتحاد. وكل ما يلتمس النور إنما جاء من النور.

وفي احتدام المناقشة بين النمل ترعرع دفء الشمس وازداد، وبدأ الندى ينفضُ ويتلاشى من على وجه البراعم. وبعد ذلك جاءت النمل لتدرك أنها لا تنتمي للأرض (أي القطرات)، ورجحوا الهواء، كأنما هي تنتمي إليه. «نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس» و«إنّ إلى ربك المنتهى»، «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

الفصل الثاني

كانت هناك بعض السلاحف تمتلك وكرّاً على الشاطئ. وفي وقت ما كانوا يحدقون إلى البحر عند استجمامهم. وفي تلك

الأتناء كان هناك طائر منقوش يلعب على سطح الماء كعادة الطيور، فكان يغطس أحياناً ويظهر للعيان. تساءلت واحدة منهم: أهذا المقبل هوائي أم مائي؟ ثم قالت أخرى: لو لم يكن مائياً فماذا عساه أن يفعل بالماء؟ ثم قالت ثالثة: لو أنه مائي لما استطاع الحياة بدون الماء.

ولقد قرر القاضي المخلص مادة الحكمة وهي:

«لحظة وأنظرُ وفقاً لأموره فإذا استطاع الحياة بدون الماء فإنه لا يكون مائياً ولا محتاجاً للماء وبرهان ذلك السمك فإنه عندما يترك الماء، فحياته لا يمكن أن تستمر. فجأة هبت عاصفة هوجاء فأثارت الماء».

وعندئذ انطلق الطائر الصغير إلى الآفاق، إبان ذلك.

قالوا للقاضي: إنَّ رضاءنا يتطلب تفسيراً.

فاقتبس القاضي قول أبي طالب المكي قدس الله روحه عن نبينا عليه الصلاة والسلام من باب الوجد والخوف حرفياً ما يلي: «عندما أزال ترتيب العقل عنه رفع عنه الكون والمكان»

قال: في حالة الوجد زال المكان عن النبي. وأنه يقول عن حسن صالح (الحسن البصري) في باب المحبة ناظراً لمقام الخلّة : «ظهر له العيان، فطُوي له المكان».

والعظماء من البشر إنما يعتبرون الأهواء من بين حجب
التعقل وأنّ الجسم كالمكان. والحسين بن منصور يقول فيما
يتعلق بالمختار عليه الصلاة والسلام: «أنه أغمض العين عن
الأيّن» من الأنس.

ويقول أيضاً: الصوفي وراء الكونين وفوق العالمين ويوافق
الجميع على أنه طالما كانت الحجب موجودة لم تنزل، فإن
المراقبة لا يمكن أن تحقق شيئاً. والنفوس التي تتم لها المشاهدة
إنما هي مخلوقة ومحدثة.

عندئذ صاحبت جميع السلاحف: كيف يمكن لماهية متمكنة في
المكان أن تُرفع من المكان، كيف يمكن أن تتحرر من اتجاهاتها
الستة؟

أجاب القاضي: إنني رويت القصة تفصيلاً من أجل هذا
الغرض.

عندئذ صاحبت السلاحف: قد عزلناك، أنت معزول.

ثم قذفته بالطين وعادت إلى وكرها.

الفصل الثالث

في قصر سليمان عليه الصلاة والسلام كانت جميع الطيور
حاضرة ما عدا العندليب، لهذا فإن النبي سليمان قد عين طائراً

كسفير من أجل أن يخبر العنديل: أنه من الضروري أن يقابل كلَّ منا الآخر. وعندما أرسل العنديل رسالة لسليمان عليه السلام فإنه لم يغادر عشَّه، ولكنه تحول إلى رفاقه قائلاً: إن أمر سليمان عليه السلام في هذه الحالة لم يكن كذباً، إنَّه وعد باللقاء. ولما كان عشُّنا لا يسعه فإنَّ اللقاء لا يمكن بالداخل، لو كان هو خارجه، وليس هناك طريق آخر لذلك.

صاح شيخ بينهم إذ الوعد «يوم يلقونه» بالحقيقة والإعلان «كلَّ لدينا محضرون» وإنَّ إلينا إياهم «في مقعد صدق عند ملكٍ مقتدر» يصبح حقيقة ويكون هذا هو الطريق:

- حيث أن عشُّنا لا يسع الملك سليمان وعلينا أن نترك العش ونذهب له «فأي مقابلة أخرى سوف تكون مستحيلة».

ولقد سئل الجنيد رحمة الله عليه: ما التصوف؟ فأنشد هذا البيت من الشعر:

وغنيُّ لي من القلب	وغنيت كما غني
وكنّا حيثما كانوا	وكانوا حيثما كنّا

الفصل الرابع

كانَ الملكُ كيخسرو يملكُ كوثرًا لإظهار العالم، حيث كان يحب أن يبحث هناك. ولقد رأى الكون وأصبح عارفاً بالأشياء

الخفية. ولقد صنع الكوثر، بواسطة عبدٍ، على هيئة مخروط. وبعد ذلك وضعه بحيث يمكن فتحه وغلقه بطريقة آلية.

وعندما أراد رؤية أحد الأشياء المختفية فتح الغطاء. وعندما فتح جميع المعلقات فإنّها لم تظهر، وعندما قام بإغلاقها ظهرت من الآلة الدوارة. وعندما كانت الشمس في منتصف السماء وضع الكوثر في مواجهتها، وعندما سقط ضوء الشمس عليها فإن كل رسومات وخطوط العالم ظهرت هناك.

و«إذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه». «لا تخفى منكم خافية». «علمت نفس ما قدمت وأخرت».

شعر:

ولما سمعت من سيدي وصف كوثرِ جم
لقد كنت أنا نفس كوبِ جمٍّ لإظهار العالم

شعر:

وتكلموا عن كوب إظهار العالم
وملابسنا الصوفية هي ذاتها الكوثر القديم المدفون
وهذا من الجنيد: «طوارق أنوار تلوح إذا بدت»
فأضواء الليل الساطعة تلوح وتلمح عندما تظهر

الفصل الخامس

شخص ما يصبح صديقاً لأحد ملوك جنوه قال له: كيف أراك؟

أجاب: إذا أردت أن تحظى بميزة رؤيانا، ضع بعض البخور في النار وألق بعيداً بقطع الحديد الموجودة في المنزل، والمعادن السبعة التي تنتج صوتاً وضوضاء «والرجز فاهجر» وامجج كل شيء يسبب ضوضاء في ثبات ورقة «واصفح عنهم وقل سلام»، وبعد ذلك فانظر إلى الشباك بعد الجلوس في دائرة واحرق البخور، عندئذ ستراني.

أما الآخرون: لغيرهم مثل السوء.

سألوا الجنيد رحمه الله: ما التصوف؟

فأجاب: هم أهل بيت لا يدخل فيه غيرهم.

والخواجة أبوسعيد الخراز رحمه الله قال:

وقامت صفاتي للمليك بأسرها

وغابت صفاتي حين غبت من الحبس

وغاب الذي من أجله كان غيبيتي

فذاك فنائي فافهموا يا بني الحس

وفي رده على واحد قال هذا البيت:

أَتِيهِ فَلَا أُدْرِي مَنْ التَّيِّبُ مِنْ أُنَا

سَوَى مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيَّ وَفِي جَنْسِي

وقال أحد الصوفية العظماء: اقطع العلائق وتجرّد من العوائق حتى تشهد ربّ الخلائق.

وقال: عندما تفعل ذلك في جميع أحوالك «أشرقّت الأرض بنور ربها وقضي بينهم بالحق» و«قيل الحمد لله رب العالمين». سلام على تلك المعاهد إنها شريعة وِردِي ومهبطُ شمالي.

صفيّر سيمرغ^(١)

السيمرغ طائر رمزيّ كان محطّ نظر المتصوّفة ومنهم فريد الدين العطار في كتابه «منطق الطير» حيث تقرر الطيور الهجرة إلى السيمرغ، والسهوروردي في هذه الرسالة يعرف في مقدمتها بهذا الطائر الذي لا يملك لساناً أو لغة، ويبحث في الطريق السالكة إليه شأن العطار، وبذلك تكون الرسالة كما وصفها السهوروردي قائلاً: «هذه مجموعة من الجمل القليلة كتبتها عن حالات إخوان التجريد «والعزلة» ووصف ذلك؛ حدّدته في قسمين: القسم الأول عن البدايات، والقسم الثاني عن النهايات.

القسم الأول، البدايات، في ثلاثة فصول هي:

١ - في فضيلة هذا العلم على جميع العلوم .

٢ - في ظهور أهل البداية.

٣ - في السكينة.

(١) ترجمها عن الفارسية د. عادل محمود بدر .

القسم الثاني، النهايات، في ثلاثة فصول هي:

١ - في الفناء.

٢ - في أن الأكثر علماً، يكون أكثر كمالاً.

٣ - في إثبات لذة الإنسان ومحبه تجاه الله تعالى.
ونورد جزءاً من هذه الرسالة.

* * *

يقول شيخ الإشراق:

وهذه الرسالة سميتها «صغير سيمرغ» ذلك الذي لا يملك لساناً أو لغة، وبقاؤنا إنما هو من أجل إعطاء مقدمة عن أحوال ومسائل هذا الطائر الجدير بالاحترام وكذلك إقامته: فهو طائر مشرق العقل يظهر لأيّ إنسان يذهب إلي جبل قاف في فصل الربيع، وهو يعتزل عشه وينتف ريشه بمنقاره عندما يسقط ظل جبل قاف عليه لمدة ألف سنة من الزمان «إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون».

وهذه الألف من السنين تصبح في عيون أهل الحقيقة مثل فجر يبزغ من الشرق حيث المملكة الإلهية، في هذا الوقت يصبح السيمرغ موقظاً للغافلين. إنّ إقامته في جبل قاف. وملاحظته تصل للجميع، على الرغم من قلة سامعيها. والجميع معه والجميع ليسوا معه، كما يقول الشاعر:

أنتم معنا ولم تكونوا لنا

وأنتم روحنا ولذا فأنتم محجوبون

وظلُّه هو الرعاية الروحية للمعذَّبين الذين وقعوا في نير
دوامة أمراض الضمور والاستسقاء، وهو يفيد مرضى الجذام،
وينزع ألوان الأسى المختلفة.

ويطير السيمرغ بلا حركة، ويخلق بلا سفر، كما أنه يقترب
متخطياً حواجز البعد. ولكني أعرفُّك، تلك هي جميع الألوان فيه
على الرغم من عدم تلونه، وعشه في الشرق والغرب أيضا لا
يخلو منه أبدا. وتحتل كلُّ هذه الحالات مكانها بداخله وهو في
ذات الوقت حرٌّ منها جميعاً، فكلها تملؤه وهو فارغ منها جميعاً.

وتنبثق كل العلوم من ملاحظة ذلك الطائر. وفوق هذا كله
فإن كل الآلات الموسيقية مثل الأرجون «الآلات الموسيقية
العجيبة» وغيرها قد اشتقت من صوت ذلك الطائر كما يقول
الشاعر:

لأنك لن ترى سليمان أبداً

فكيف تعرف لغة الطيور

من النار طعامه، ولو أن واحداً ربط ريشة مع إغفاله لتلك
الريشات الموجودة على جناحه الأيمن، عندئذ تبتعد النار، فإذا

شاهد "شخص" ذلك، فإنه يطلب برهاناً أمام النار. إنّ الصباح المنسم إنما يأتي من تنفسه، ولذا فإنّ المحبين يروون له أسرار قلوبهم وعقولهم، وجميع الأشياء المكتوبة هنا مخفية (يقصد أنّ ما هو مكتوب هنا يختلف عما هو كامن في الباطن) عما هو كامن في الصدر، وجزء منها يعتبر موجزاً لحسابه وملاحظته.

أولاً - القسم الأول: في البدايات

الفصل الأول: في فضيلة هذا العلم علي جميع العلوم

من جميع الجهات يمكننا القول إنّ المعلوم الشريف (أي علم القلب الشريف) له الأفضلية على العلوم الأخرى لأكثر من سبب.

أولاً: لأنّ المعلوم (بالنسبة للقلب) سيكون أرفع وأكثر بروزاً، وعلى سبيل المثال فصياعة الذهب تكون أفضل من صنع حزمة سروج ببراعة، ذلك يفضل بالنسبة للذهب والأشياء الأخرى كالخشب والصوف.

ثانياً: لأنّ حجج هذا العلم أقوى من أية حجج للعلوم الأخرى.

ثالثاً: لأنّ العمل في تلك المسألة سيكون أكثر خطورة وأعظم ميزة، وبالمقارنة مع العلوم الأخرى نجد أنّ جميع أدلة الأفضلية وعلامات الترجيح موجودة في هذا العلم.

وبملاحظة «المعروف» و«المعلوم» يبدو أنّ هدف هذا العلم هو الحقيقة، وأنّه من غير الممكن مقارنة الأشياء الأخرى الموجودة في جلال هذا العلم وعظمته. وبالنظر إلى تحقيق الدليل وتأييد البرهان، فإنّه من الراسخ أنّ المشاهدة أقوى من الجدل.

وعلماء الكلام يعتقدون، أنّه مما يتفق مع الشرع، أنّ الحق تعالى سوف يعطي الإنسان العلم الضروري عن صفاته ووجوده، ولأنّ ذلك «علم» شرعي، فاكْتساب معرفة من هذا النوع تكون يقيناً أرفع من تلك المعرفة التي تتطلب حمل مشاكل الملاحظة وجهود التعقل، والهبوط إلى مواقع الشك وإقامة الشكوك.

وأحد الصوفية سئل مرّةً، ما الدليل على وجود الصانع؟ أجاب: بالنسبة لي لقد أغنى الصباح عن المصباح، وواحد آخر من الصوفية قال أيضاً: إنّ المظهر الخارجي للفرد الذي يبحث عن الحقيقة من خلال ألوان الجدل يكون مثل الباحث عن الشمس بواسطة المصباح.

ولأنّ علماء الأصول قد قبلوا ووافقوا على أنّ الحق تعالى في العالم الآخر سوف يهب الإنسان إدراك الكشف ليرى الله بلا واسطة، بلا جدل، بلا برهان وتنبه، وبلا اعتبارات مع أهل

الحقيقة. وطبقاً لهذه المبادئ تنشأ إدراكات من هذا النوع في قلب الإنسان لكي يراه (أي: الله تعالى) في هذا العالم بدون أي توسط أو برهان. وذلك طبقاً لما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رأى قلبي ربي» وعليّ كرم الله وجهه يقول : «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

وليس مناسباً هنا تفصيل الأسرار المحجوبة في مثل هذا المقام.

وبنظرنا إلى الأهمية فإنه ليس هناك من شكّ، فبالنسبة للإنسان، ليس هناك أكثر أهمية من السعادة العظمى، وبالأحرى فلا يمكن بحث جميع المطالب في رسالة مختصرة.

أما أعظم معاني النجاح فتكون في المعرفة. ولذلك فإنه من كل النواحي يثبت لنا أنّ المعرفة (أي الصوفية) أرفع من كلّ المعارف.. والجنيد رحمه الله قال: «لو أنني أعرف أنه في هذا العالم تحت السماء يوجد علم أشرف من تلك المعرفة التي عاينها المحققون، لشغلت نفسي بشرائه، وكنت قد اجتهدت لإيجاد أفضل الطرق حتى أفوز به».

لطائف الكلمات

من أقوال السهرودي:

من لم يبتهج بأعاجيب سرادقات العليّين، فهو من الغافلين،
ومن لم يذق مائدة رب العالمين فهو من الخاسرين، ومن لم يتلذذ
بلذة أشعة أنوار المقرّبين فهو من المحرومين.

إذا ضبطت نفسك بالزائد على مهمّ بدنك الضروري،
واستكملت بالعلم : أتيت على كثير من الفضائل.

لا تتكلم قبل الفكر، فكّر مراراً ثم قل، فإن كنت بنطقك
صابراً من الصالحين، فيوشك أن تصير بالصمت ملكاً من
المقرّبين.

الحقيقة شمسٌ واحدةٌ، لا تتعدد بتعدد مظاهرها من البروج،
المدينة واحدة، والدروب كثيرة، والطرق عسيرة يسيرة.

أول الشروع في الحكمة الانسلاخ عن الدنيا، وأوسطه
مشاهدة الأنوار الإلهية، وآخره لا نهاية له.

لا تحدث نفسك، إن كنت امرأةً ذا جدّ، أن تتكئ على سرير الطبع وتقول: «قد أحطت من العلوم الحقيقية بشطريها، ولنفسي عليّ حق، وكيف وقد فزت بقصب السبق على إخواني».

إنّ هذه خَطْرَةٌ ما أفلح من دام عليها قط.

كلّ هذه العلوم صفير يستيقظك من رقدة الغافلين، وما خلقت لتتغمس في مهلك التيه يا مسكين.

انزعج بقوة، وارفض أعداء الله تعالى فيك، واصعد إلى الطاسين لعلك ترى وجه ربك بالمرصاد.

ليكن يومك خيراً من أمسك ولو بقليل، وإلا فأنت من الخاسرين، رَوْحُ سِرِّكَ بترِكَ ما ثقلت عليه تبعاته، اذكر موتك وقدمك على الله عزّ وجلّ في كل يوم مراراً، احفظ الناموس يحفظك، لا تؤخّر إلى غدٍ شغل يومك، فإنّ كلّ يومٍ آتٍ بمشاغله، ولعلّك لن تلحقه.

كن ذا عزيمة، فإن عزائم الرجال تحرّك الأسباب..

وبباب الحق قومٌ لا تشغلهم صدمات الأسباب، ولا يجزعون من البلاء، فإن البلاء صراط الله، به عبرت قوافل الرجال، ولو سلكته لوجدت عليه آثارهم، وتعرّفت منه أخبارهم، فكلُّ أرضٍ لم يصبها صيّبٌ من المصائب أبت أن تنبت نبت النجاح.

لكلَّ قهوةٍ سكارى، ولكلِّ بحرٍ مغرقون، كم بين صائر في
الظلمات زحزح عن نور الشمس، وبين حائرٍ أغرقه نورها في
قُربها الأقرب.

أن تعبد الله حباً خيراً من أن تعبده خوفاً، فإن التعبد بالتخويف
دين اللئام.

أعظم الملكات (= السلوك إلى الله ومشاهدة الأنوار العقلية)
هي الموت حين ينسلخ النور المدبر من هيكل الظلمات (=
البدن) ويبرز إلى عالم النور، ويصبح معلقاً بالأنوار القاهرة،
ويرى الحجب النورية كأنه معلق بالنور المحيط، وهو مقام
عزيز جداً

العقل نور الله، ولا يهتدي إلى النور غيرُ النور، لا تَظْهَرُ
صورة فردانية إلا في مرآة فردانية، النفس مرآة الله، ومرآة الله
لا تشبهها مرآة الأجسام، إذا انحلَّ التركيب رجع الواحد إلى
الوحيد.

لولا إراعة المبطلين لما نطقت الفطرة بشواهد الإيمان،
ادفعوا سموم الحادثات بحُمَيِّ الأزل، إذا رضي صاحب اليد
العليا خسرت الوشاة.

اذكري أيتها المدينة الفاضلة ربك بأصواتك المتجاعة،
وبالصياح والتفخيم والتعظيم، ما أبهاك يا مدينة! لحني بذكر الله
تعالى أسواقك ومشاريعك ومسالكك، وبيوتك وسطوحك عند
بلوغ رأس النيران إلى مراسم التسبيح، وكبري تكبيراً جهورياً
يهزم جنود الشيطان، ويقهر عبدة الطاغوت، ويرعد خبيثات
النفوس، ويهز النفوس، ويحرك الأشباح. الصيحة الجهورية
بالتسبيح فريضة في كتاب الله المسطور بالبيان.

أمر الله بالرصد، إذا توغلت في الهوى علمك الهوى، كيف
يكون كتاب الله منشوراً يراه العاقلون ولا يراه الغافلون، ما شكر
الرب بأفضل من الصبر، ولا أرضاه كالرضى.

من أشعاره وموشحاته

ترك السهروردي عدداً من القصائد والمقطوعات والأبيات المفردة، التي استطاع تلامذته أن يجمعوها، ولو لم تشغله بحوثه وكتبه في حكمة الإشراق لكان له شأن آخر في الشعر، وتعدُّ أشعاره الغزلية من أرق ما قيل في الغزل الرمزي المتعالي، وهو فيها عذب المورد، مجنح الخيال، عميق الفكر، ثرُّ القريحة، وهي بالرغم من أنَّ أغلبها يحمل جذور فلسفته إلا أنه لا يتقلها بالمصطلحات الصوفية أو الفلسفية، ويحس قارئها أنه أمام مقطوعة من الغزل الرفيع. أما ما وصلنا من موشحاته فتدل على تمكن من هذا الفن من حيث البناء الفني الذي يدل على ذوق رفيع، ومما لا شك فيه أنها كانت تتشد في حلب وهي الشهيرة بموسيقاها وغنائها، وإنَّ موشحاً مثل موشح «يامليحاً» بلغ مرحلة متقدمة من النضج الفني يعود إلى القرن السادس الهجري يؤكد لنا النشأة المشرقية للموشحات قبل أن تفد إلينا الموشحات الأندلسية.

موشح يا مليحاً

يا مليحاً قد تجلّى	فيه أهل الحيّ هاموا
سيّما لما تحلّى	وحلا فيه الغرام
قلت لما لاح يُجلى	وانجلى عني الظلام
هكذا العيش وإلاّ	فعلى العيش السلام

دور

حبّذا لمّا سقاني	صفو كاس الحب صرفا
وحباني بالتداني	وانثنى جيّداً وعظفا

دور

مُبَعَّدٌ في القلب حلاًّ	وجلّى عني الظلام
هكذا العيش وإلاّ	فعلى العيش السلام

دور

يا خلّيّ البال هلاًّ	تدخل الحانَ وتعشق
إنّ ليل الصّدّ ولّى	وصباح الوصل أشرق

دور

ومقام الحب حلاًّ	لا يضاهيه مقام
هكذا العيش وإلاّ	فعلى العيش السلام

موشح على العقيق

على العقيق^(١) اجتمعنا نحن وسود العيون
أظن مجنون ليلى ما جنّ بعض جنوني

دور

إن متّ وجداً عليهم بأدمعي غسّلوني
نوحوا عليّ وقولوا هذا قتيل العيون

دور

أيا عيوني عيوني ويا جفوني جفوني
فيما فؤادي تصبر على الذي فارقوني

شوق

شوقي يجلّ عن الوسائل وهوى يُنزّه عن مماثل
شوقي يُجدّده الزّمان إليك لا نحو المنازل
بُشرتُ أنّك قاتلي يا حبّذا إن كنت قاتل
زود فؤادي نظيرة من حسن وجهك فهو راحل
روحي فداء مبشري إن صحّ أنّك لي مواصل
مستشفّع بوسائل وألذّ من إحدى الوسائل

(١) العقيق، مكان يُرمز به إلى عالم الصفاء والكمال الإلهي.

سَهْرِي لَغَيْرِكَ ضَائِعٌ وَتَيْمَمِي بِسِوَاكَ بَاطِلٌ

صَيَّاد

قَفِ بِنَا يَا سَعْدَ نَزَلَ هَا هُنَا
وَابْتَغِ لِي عِبْرَةً أَبْكِي بِهَا
هَذِهِ الْخِيفُ وَهَاتِيكَ مَنِي
وَاحْبِسِ التَّدْلِيحَ عَنَّا سَاعَةً
أَهْلُ مَكَّةَ هَكَذَا مَكَّتُمْ
قَتَلْتِ سُمْرَكُمْ سَادَتْنَا
كُلُّ مَنْ آمَلَ شَيْئاً نَالَهُ
قُلْتُ: يَا صَيَّادَ قَلْبِي حَلَّاهُ
قَالَ: مَنْ تَعْنِي؟ وَقَدْ أَبْرَزَ لِي
قُلْتُ إِيَّاكَ؟ فَأَوْمَأَ خَجَلًا
فَأَثِيلَاتِ النَّقَا مِيعَادُنَا
فَدُمُوعِي نَفَذْتُ بِالْمُنْحَنِ
فَتَرَفَّقَ أَيُّهَا الْحَادِي بِنَا
نَنْدُبُ الْحَيَّ وَنَبْكِي الْوَطْنَ
كُلَّ مَنْ حَجَّ إِلَيْهَا فُتِنَا
لَسْتُ أُعْنِي بِكُمْ سُمْرَ الْقَنَا
يَوْمَ عِيدٍ فِي مَنِي إِلَّا أَنَا
حَرَمَ الصَّيْدِ عَلَى مَنْ فِي مَنِي
مِنْ خَبَا الْبُرْقِعِ وَجَهَا حَسَنًا
قَالَ: وَالصَّيَّادُ مَنْ؟ قُلْتُ: أَنَا

حَنِين

خَلَقْتَ هَيَاكِلَهَا بِجَرَءِ الْحِمَى وَصَبْتَ لِمَقَاهَا الْقَدِيمَ تَشْوَقًا^(١)

(١) تحنن النفس للعودة إلى مبدئها وتخلصها من أسر الجسد، وهذا ما نجده عند سادة الصوفية كابن سينا في عينيته وجلال الدين الرومي في حديثه عن صوت الناي.

وَتَجَرَّدَتْ عَمَّا أُجِدَّ وَأَخْلَقَا	مَحْجُوبَةً سَفَرَتْ وَأَسْفَرَ صُبْحَهَا
رَبْعَ عَفَتِ أَطْلَالُهُ فُتَمَزَّقَا	وَتَلَفَّتْ نَحْوَ الدِّيَارِ فَشَاقَّهَا
فَيَرُومُ مُرْتَبِعًا يَرُوقُ الْمُرْتَقَى	وَعَدَتْ تَرَدَّدُ فِي الْفَضَاءِ حَبِيبَهَا
رَجَعَ الصَّدَى أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى اللَّقَا	وَقَفَتْ تُسَائِلُهُ فَرَدَّ جَوَابَهَا
أَسْفًا عَلَى شَمَلٍ مَضَى وَتَفَرَّقَا	فَشَكَتْ بَعِينَ الْحَالِ مَعَهُدَ عَهْدَهَا
ثُمَّ انْطَوَى فَكَانَهُ مَا أَبْرَقَا	فَكَانَمَا بَرَقَ تَأَلَّقَ بِالْحَمَى

أقول لجارتي

وَلِي عَزَمَ الرَّحِيلَ إِلَى الدِّيَارِ ^(١)	أَقُولُ لِحَارَتِي وَالِدَمْعُ جَارٍ
فَإِنَّ الشَّهْبَ أَشْرَفَهَا السَّوَارِي	ذَرِينِي أَنْ أُسِيرَ وَلَا تَنُوحِي
وَحَالُ الْمُتَرْفِينَ إِلَى بُوَارٍ	فَسِيرُ السَّائِرِينَ إِلَى نَجَاحٍ
كَأَنَّ اللَّيْلَ بُدِّلَ بِالنَّهَارِ	وَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءًا
فَذَكَرْنِي بِهِ قَرَبَ الدِّيَارِ	فِيَأْتِينِي مِنَ الصَّنْعَاءِ بَرَقٌ
وَفَوْقَ الْفَرَقْدِينَ عَرَفْتُ دَارِي	وَكَيْفَ يَكُونُ لِلدِّيدَانِ طَعْمٌ
وَأَرْبَعَةُ الْعُنَاصِرِ فِي جَوَارِي	أَأَرْضِي بِالْإِقَامَةِ فِي فَلَاةٍ
إِلَى كَمْ أَجْعَلُ التَّنِينَ جَارِي	إِلَى كَمْ آخِذُ الْحَيَاتِ صَحْبِي
فَلَا أَدْرِي يَمِينِي مِنْ يَسَارِي	إِذَا لَاقَيْتُ ذَاكَ الضَّوْءَ أَفْنَى

(٢) الديار: انظر الشرح السابق

ولي سرّ عظيم أنكروه يدقون الرؤوس على الجدار

خيال الظل

رأيتُ خيال الظل أكبرُ عبرةً
شخوص وأشباح تمرُّ وتنقضي
تجيء وتمضي تارة بعد تارة
لمن كان في علم الحقيقة راقٍ
سريعاً وأشكالاً بغير وفاقٍ
وتفنى جميعاً والمحرك باقٍ



قف على المنزل واسأل طلله
ولماذا رحل السكانُ عن
طال شوقي فابك إن شئت معي
خلّني يا صاح عن عذلك لي
لست أنسى ساعة البين وقد
أودع القلب وقد ودّعني
حرّم الوصل على عاشقه
أيّها القلب المعنّى هكذا
من به بعدهم قد نزله
سكن كانوا به عن عجله
واندب الربيع وسائل طلله
قد عصى قلبي على من عدله
ثورّ المحبوب فيه جملة
نار قلب لم تزل مشتعلة
فهو يدري أنه قد قتله
تطلب الحب وتهوى ملله

أنوار ليلي

أيها السائق يبغي دار مَيّ وعريباً دون ذِيَاك اللويّ

هذه الباناتُ باناتُ الحمى	حيّها يا ميّت الأشواق حيّ
واطو ذكر البان في ظل النقا	بين سفح السفح من سلعٍ وطىّ
وإذا الحسنُ بدا فاسجد له	فسجود الشكر فرضٌ يا أخيّ
هذه أنوارُ ليلى قد بدت	فلسلب القلب يا صاح نُهىّ
فالفتى ما سلّبتَه جملة	لا الذي تسلبه شيئاً فتيّ
كلُّ حيّ في هواها ميّتٌ	إنما ميّت هواها ذاك حيّ

ماء مدين

ولمّا وردنا ماءَ مدينَ نستقي	على ظمأً بتنا إلى موقف النجوى
نزلنا على حيّ كرامٍ بيوتهم	مقدّسة لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نارٌ على البعد أضرمّت	وجدنا عليهما من تحبٍّ ومن تهوى
سقانا وحيّانا فأحيا نفوسنا	وأسكرنا من راح إجلاله التقوى

شذرات

بيني وبينك في المودة نسبةٌ	مكتومةٌ عن سرّ هذا العالم
نحن اللذان تعارفّت أرواحنا	من قبل خلق الله طينة آدم

* * *

مَا عَلَى مَنْ بَاحَ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا بِي لَيْسَ يَنْكُتُمْ
زَعَمُوا أَنَّنِي أَحْبَبْتُكُمْ وَغَرَامِي فَوْقَ مَا زَعَمُوا

* * *

بَلَاءٌ لَيْسَ يَشْبَهُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسْبٍ وَدِينٍ
يُبِيحُكَ مِنْهُ عَرِضًا لَمْ يَصْنُهُ وَيُرْتَعُ مِنْكَ فِي عَرِضٍ مَصُونٍ

* * *

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الْخَمَرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلِ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّهَا خَمَرٌ وَلَا قَدْحَ وَكَأَنَّهَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرُ

* * *

لَا تَأْمَنِ الْمَوْتَ الْخَوْوُ نَ وَخَفَ بِوَادِرِ آفَتِهِ
الْمَوْتَ سَهْمٌ مُرْسَلٌ وَالْعُمْرُ قَدْرٌ مَسَافَتِهِ

الْيَوْمَ أُيْقِنْتُ أَنَّ الْحُبَّ مُتْلِفَةٌ وَأَنَّ صَاحِبَهُ مِنِّي عَلَى خَطَرٍ
كَيْفَ الْحَيَاةِ لِمَنْ أَمْسَى عَلَى شَرْفٍ مِنْ الْمَيِّتَةِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ
يَلُومُ عَيْنِيهِ أَحْيَانًا بِذَنْبِهِمَا وَيَحْمِلُ الذَّنْبَ أَحْيَانًا عَلَى الْقَدْرِ

يَا نَسِيمَ الْقَرَبِ مَا أَطْيَبُكَ ذَاقَ طَعْمَ الْأَنْسِ مِنْ حَلِّ بَكَا
أَيُّ عَيْشٍ لِأَنْسٍ قَرِيبُوا قَدْ سَقَوْا بِالْقُدْسِ مِنْ مَشْرِبِكَا

بَانُوا وَأَضْحَى الْجِسْمُ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا تُبْصِرُ الْعَيْنُ لَهُ فَيَّا
يَا أَسْفَى مِنْهُمْ وَمِنْ قَوْلِهِمْ مَا ضَرَّكَ الْفَقْدُ لَنَا شَيْئًا
بِأَيِّ وَجْهِهِ أَتَلَقَّاهُمْ إِنَّ وَجْدُونِي بَعْدَهُمْ حَيًّا



المراجع

- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ : تأليف الشيخ راغب الطباخ، دار القلم حلب.
- مجموعة دوم مصنفات شيخ إشراق شهاب الدين السهروردي: تصحيحات ومقدمة هنري كوربان، طهران ١٩٥٣.
- هياكل النور: مقدمة الشهرزوري، تصحيح وتعليق : حسن السماحي، دار الهجرة بيروت.
- من السهروردي إلى الشيرازي: د. موسى الموسوي، دار المسيرة، بيروت.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية المعروفة بالطبقات الكبرى: زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي ت ١٠٢١ هـ ، ج ٢، ت ١٠٢١، تحقيق محمد اديب الجادر، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٧ م.

- الوافي بالوفيات : صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي، ج ١، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، ط ١ عام ٢٠٠٤م.
- عيون الانباء في طبقات الاطباء :ابن ابي أصيبعة موفق الدين ابو العباس احمد بن قاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، ج ٢ بيروت ١٩٨١.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان الإمام ابو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان الياضي ت ٧٦٨ ج ٣، الكتاب الإسلامي القاهرة ١٩٩٣.
- أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي : الدكتور محمد علي أبو ريان، دار الطلبة العرب بيروت، ط ٢ عام ١٩٦٩ م.
- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها : الدكتور عرفان عبد الحميد الفتاح، دار الجيل بيروت، ط ١ عام ١٩٩٣ م.
- السهروردي الحلبي (مؤسس المذهب الإشراقي) السهروردي المقتول ضمن كتاب شخصيات قلقة في الإسلام : هنري كوربان ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي طبعة القاهرة عام ١٩٩٤ م.

- معجم الأدباء : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله
الرومي الحموي، ج ٩ ص، دار إحياء التراث العربي، ط ١
عام ٢٠٠١ م .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين
أحمد بن محمد بن خلكان، ج ٣، تحقيق إحسان عباس، دار
صادر بيروت، ١٩٨٠ م .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي عبد
الحي بن أحمد العكري الدمشقي، ج ٤ تحقيق عبد القادر
ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير مصر القاهرة، ط ١ عام
١٩٩٦ م

الفهرس

الصفحة

٥	حياته وعصره
١٣	صفاته وطموحه
١٧	شيوخه وتلامذته ومؤلفاته
٢٨	قبر خارج السور
٣١	السهروردي في الوجدان الشعبي
٣٥	السهروردي في حلب
٤٨	مراتب الحكماء
٥١	أخبار محققة
٥٨	طوابع الفلسفة الإشراقية
٦٦	رسالة في اعتقاد الحكماء
٧٠	قواعد الفلسفة الإشراقية
٨١	سمفونية شعرية في العشق
٨٥	قصة الغربة الغربية
٩٤	رسالة أصوات أجنحة جبريل

لغة النمل	١٠٤
صفيير سيمرغ	١١٣
لطائف الكلمات	١١٩
أشعاره وموشحاته	١٢٣
مراجع	١٣٢

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

أفاق ثقافية

الإشراقية في جوهرها فلسفة استدلالية عقلية، وسلوكية إشراقية هدفها اتصال الأنوار التي هبطت إلى البرازخ والغواسق بالنور الأتم الأفهر، وهي تشترك مع العرفان في إقرار أصول الكشف واعتمادها، كما أشرنا إلى النقطة الرئيسية التي تفترق فيها عن العرفان في تفسير الوجود. وبهذه الممازجة، وينسخها الزرادشتي الذي سنتحدث عنه، وبهيكلمها الفكري الإسلامي استطاعت أن تفتح طريقاً جديداً للعقل غير الطريق الذي سارت عليه المشائية، مُمدّة العقل الإنساني والروح الإنسانية التائقة بطاقة جديدة وحرية واسعة في الخلق والابتكار كانت مرتكزاً للكشف النوراني، وهيأت له قفزات سديدة وسريعة للوصول إلى الحقائق بعيداً عن قيود وجمود الاستدلال وشطحات الصوفية.



www.syrbook.gov.sy

E-mail: syrbook.dg@gmail.com

هاتف: ٢٣٢١١٦٤

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣ م

السعر (٥٠) ل.س